

# الغيبوية



## جلسة سرية مع المحضرين

« شلالات واينجرز »

في نيويورك سخر أصدقاء «إميل» منه عندما أخبرهم بعزمه على الطيران إلى «بوجكيسى».. فهو يجهل مكان هذه المنطقة التي تقع على أطراف المدينة - على حد قول «سام» صديقه وشريكه في المسكن..

لذلك قرر «إميل» ترك المجال الجوي واستخدام القطار.. وعلى بعد ساعة من «مانهاتن» استقل الأوتوبس لمدة عشر دقائق حتى بلغ «شلالات واينجرز»..

هناك على قمة التل المغطى بالأشجار كان على موعد مع السيدة «ايكر» في أحد الأديرة.. وأتاح له حضوره مبكراً رؤية جميع القادمين فلم يكن وحده على موعد معها في ذلك اليوم.. وعندما أكد له سكرتير جمعية «شانتى نيلاية» أن هناك ثلاثة وتسعين شخصاً سيحضرون هذه الندوة يوم ٢١ يناير من عام ١٩٨٤ .. اضطر إميل إلى الاتصال بـ «ايكر» في منزلها «بفرجينيا» ليستأذنها في الحضور.. وكان حسن الحظ إذا سمحت له بحضور الندوة فهي عادة تسمح بإضافة شخص أو اثنين فقط.. وهكذا لم يضع مجهوده في عبور المحيط الأطلسي سدى..

إنهم يتوافدون تباعاً حتى اكتمل عددهم في الثانية عشرة ظهراً.. جميعهم من الأمريكيين عدا ثلاثة هم: شاب ايطالي مصاب بالسرطان وطبيب من بوليفيا - وإميل الفرنسي الجنسية.. جمعت الندوة ألواناً مختلفة من البشر.. رجالاً ونساء منهم الهادئ والعدواني، الملتحي والأجرد، المثقف والحرفي..

وكان أصغرهم سنًا لا يتجاوز الثامنة عشرة وأكبرهم امرأة في السبعين.. تشغلهم جميعاً فكرة واحدة هي الاحتضار.. فمنهم آباء أو أبناء لأشخاص يواجهون الموت وثلاثهم هم المحتضرون أنفسهم..

هذا هو الهدف الذى قطع من أجله «إميل» رحلته داخل أمريكا.. فهو يريد أن يقضى أسبوعاً متواصلًا من الليل والنهار بين أربعة جدران مع رجال ونساء مهددين بأبشع الأخطار: الموت..

استقبلت «ساندى» إحدى مساعدات «إيكر» الثلاثة إميل مرحبة ثم اصططحته إلى القاعة التى ستعقد فيها الندوة.. هناك وجد ثلاثة وتسعين مقعداً من البلاستيك متراصة فى ثلاثة صفوف على هيئة نصف دائرة حول المقاعد الوثيرة المخصصة «لإيكر» ومساعدتها.. وفى وسط القاعة وضعت مرتبة عليها وسادتان ويجوارها كمية ضخمة من المفكرات القديمة..

وبعد أن نقل القادمون أمتعتهم إلى الغرفة التى أرشدهم إليها أحد الرهبان بدءوا يتوافدون على البهو الرئيسى.. وحاول إميل فى فضول أن يستخدم حاسته السادسة لاكتشاف المحتضرين من بين أمثاله الذين حضروا سعيًا وراء مزيد من المعلومات حول ظاهرة الاقتراب من الموت.

إن جميعهم يظهرون نوعاً من الضعف البشرى.. تتشابه وجوههم وأجسادهم.. يماثلون تماماً أى عينة عشوائية من البشر يمكن اختيارها من أحد شوارع بوسطن أو شيكاغو.. ويتعارف القادمون الذين جمعتهم نفس الحنة وتختلط ضحكاتهم.. ومع إشراق الشمس مبدة السحب والغيوم يسود جو من المرح مما يدفع «إميل» للتساؤل عما إذا كانت قدماء قد قادته خطأ إلى مكان آخر لا يوجد به محتضرون.. هنا يحاول كل من الحاضرين جاهداً إخفاء هويته. ويرقب «إميل» القاعة ويتخيل أحد المحتضرين راقداً فوق المرتبة فى سبيله لسرد معاناته.. إن مجرد التفكير فى هذه الأمور يصيبه بالغثيان ولكنه يعود ليتساءل: «من محتضر هنا؟» ثم يجيب نفسه ساخراً:

«إننا جميعاً نواجه الموت!» وأخيراً يتشله صوت جرس موعد الغذاء من التأمل والتفكير.

فى قاعة الطعام جلس الناس حول مناضد تتسع لاثنى عشر فرداً ولاحظ الفرنسي أن الأمريكيين يتمتعون بشهيتهم المعتادة رغم سوء حالتهم النفسية. ووضعت الصديقة إلى جانب جاره فى الغرفة وهو شاب من «بروكلين» يدعى «فيل» ضخم الجسم، أحمر الوجه، غير حليق يتميز حديثه بالسخرية والفضول.. وعلى نفس المنضدة جلست سيدة شقراء فى الأربعين من عمرها، جميلة رغم الهالات السوداء التى تحيط بعينها.. وأخذت تشكو من المناهج الدراسية المكتظة.. فابتهت التى التحقت هذا العام بكلية الهندسة المعمارية تجد صعوبة بالغة فى استيعاب هذا الكم الهائل من المعلومات.. وعندئذ صاح «فيل» ضاحكاً: «إننى مهندس وأنصحها بترك الكلية!»

وهنا لمحها «إميل».. إنها جالسة أمامه تفصلهما منضدتين.. إنها هى.. صغيرة الحجم ذات ذقن مميز.. تبدو أكبر قليلاً من الصورة.. إنها «إيكر» فى الستين من عمرها، ظل «إميل» دون وعى يرقب هذه المرأة الغريبة وهى تتناول طعامها برشاقة متناسياً الحوار الدائر إلى جانبه حتى انتبه لصوت الجرس يدق معلنا انتهاء الغذاء.. فبدأ الجمع يتجه إلى قاعة الندوات.

بدا الجو المخيم على القاعة أكثر مرحاً، فقد طلبت «إيكر» من الحاضرين بلهجة يغلب عليها الطابع السويسرى الألمانى أن ينشدوا إحدى مقطوعات الفلكلور الأمريكى.. واندمجت المجموعة - التى تلتقى لأول مرة - فى الغناء بروح جماعية متألفة على أنغام الجيتارين المستخدمين فى العزف الموسيقى.

بعد توقف الغناء تحدثت «إيكر» لضع ثوان طالبة من كل شخص أن يقوم بدوره بإلقاء الضوء على سبب مجيئه بطريقة موجزة.. وخلال خمس دقائق ساد التوتر أرجاء القاعة..

كانت القصةان اللتان تصدرتا الندوة غير مؤثرتين فهما لامرأتين إحداهما من نيويورك والأخرى من بوسطن.. الأولى جاءت لأن والدتها تموت ببطء ولا تدرى ماذا يمكن أن تفعل من أجلها.. والثانية لأنها تشعر بالآلم غريبة فى جسدها.

بدأ «إميل» يتشاءب معتقداً أن الملل سيخيم على تلك الجلسة التى لا بد أن ينتظر فيها دوره بعد ثلاث ساعات متصلة.. ولكن ماذا سيقول ليبرر حضوره؟ إنه لا يدرى حتى الآن..

وهنا قامت شابة جميلة ذات شعر أحمر طويل لتروى مأساتها التى زادت من وجوم الحاضرين.. لقد توفى زوجها بعد أن عانى الكثير بسبب إصابته بسرطان العظام.. وانخرطت فى البكاء كأنما وجه إليها لكمة شديدة فى صدرها ولم تستطع أن تكبح دموعها التى حالت دون إكمال بقية القصة.

وشعر «إميل» بحفاف فى الحلق ولاحظ أن الشخص الأسمر الجالس بجواره يحاول هو الآخر ابتلاع ريقه وهما يتابعان بأعينهم المرأة البائسة.. بعدها صرخت سيدة أخرى فى حرقه ولهجة غير مفهومة تميز أهل الجنوب: «لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت..» وأخذت تبكى بدورها وسمع «إميل» صوتاً هامساً يتساءل عما يهدد حياة هذه المرأة.. «إنه سرطان الدم» أجاب أحد الحاضرين فى هدوء..

الآن.. بدت الوجوه شاحبة، وجاء دور الشخص الخامس وكان رجلاً أبيض ذا لحية سوداء وهو طبيب نفسى توارقه وتزاحم فى رأسه آلاف الأسئلة حول الطريقة التى يمارس بها مهنته.. وأسهب الطبيب فى الحديث فتجاوز الوقت المحدد له مما أتاح مهلة صغيرة لالتقاط الأنفاس بعيداً عن المأسى.. ولكن الشخص السادس جاء ليزيد من توتر الجميع.. مهندس شاب، رياضى، فقد

ابنه الصغير منذ عشر سنوات ولا زال يعانى حتى الآن من فراق صغيره..  
وفجأة انهار الرجل ذو الشارب الكثيف وانهمرت دموعه وكانت صدمة للجميع  
أن ييكي رجل يتمتع بكل صفات الرجولة بهذه الطريقة المؤسفة وهو يصرخ:  
جيمى! صغيرى جيمى..!» وكأنما نكأ الرجل جراح من حوله وأيقظ أحزانهم  
التي نسوها لوهلة وهم يتابعون مأساته فشاركه الكثيرون البكاء.

توالت القصص.. و «إيكر» ساهمة لا تقول شيئاً.. ملاحظها هادئة ولكن  
نظراتها ثاقبة ترقب المتحدث باهتمام.. وذكر البعض أنهم لا يستطيعون على  
وجه الدقة تحديد سبب مجيئهم لحضور هذه الندوة.. واستفاض البعض الآخر  
فى شرح أحزان غير مؤثرة. وبين الحين والآخر يفجر أحد الحاضرين مأساة  
حقيقية تنفطر لها القلوب وتدمع لها العيون.

عندما دق جرس العشاء كان الجمع قد أوشك على الانتهاء من إخراج  
مافى جعبته. الآن سقطت الأقنعة وظهرت مواطن الضعف فى هذه الشخصيات  
التي يختفى داخل كل منها طفل صغير ضعيف أمام مشاكله الخاصة.. أن  
أغلبية الحاضرين يواجهون محناً قاسية.. بينهم اثنا عشر شخصاً مصاباً بالسرطان  
وخمسة من الشواذ جنسيا مصابين بمرض فقدان المناعة (الإيدز) القاتل وست  
أرامل وستة آباء لم يستطع الزمن مداواة فجيعتهم فى وفاة أطفالهم.. وظهر  
أيضاً ضمن هذا الجمع خمسة محاررين شاركوا فى حرب فيتنام وأصيبوا بسببها  
بجالة من الانهيار النفسى.

وشعر «إميل» بأن همومه قد تبدو تافهة أمام هذا الطوفان من المآسى.. فهو  
يتمنى للقللة التي تتمتع بصحة جيدة، كما أنه لا يحمل بين جنباته حزناً دفيناً..  
وعندما جاء دوره فى الحديث فوجىء بصوت مرتجف يخرج من أعماقه  
مؤكداً أن فكرة الموت طالما أزعجته وأيقظته ليلاً فى حالة رعب وهلع خاصة  
بعد أن ارتبط بامرأة عمره وأحب معها الحياة حتى أصبح يخشى الموت..

وأخيراً انتهت الجلسة وقام الحاضرون عيونهم حمراء وأجفانهم منتفخة من كثرة البكاء وهبطوا إلى قاعة الطعام وقد انتهى جو المرح الذى ساد بينهم فى البداية.. وحتى ذلك الحين لم يكن «إميل» يعلم شيئاً عن الندوة التى ستعقدتها «إيكر»..

## الشعاع القاتل

مراكش - باريس

ماذا دهى هذا الغلام المتطفل ؟ يعبر المحيط الأطلنطى ليسجن نفسه بين أحزان مجموعة من المحتضرين ؟

اللجنة على تلك التجارب التى يقال إنها تصنع الرجال! إن «إميل» نفسه مهموم بخوفه الشخصى من الموت.. فرغم أنه مسيحي الديانة إلا أن الأحزان العديدة التى اعترضت طفولته قد أفقدته الإيمان بدينه! وهنا حيث العيون متفجرة بالدموع والوجوه مخنوقة بانفعال الذكريات، والوجدان مليئة بالأس المتور، تضيع هباء نصائح القساوسة ومحاولتهم تخفيف آلام هؤلاء الأحياء الأموات.

وتعود به الذاكرة إلى فجر ذلك الصيف الكئيب عندما كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً.. كان الظلام يخيم على المكان عندما استيقظ «إميل» فجأة وتحسس سريره فى الغرفة الكبيرة الخالية من الأثاث فى المعسكر، كانت عائلته قد تم ترحيلها مؤخرًا من المغرب فشهدت أيامًا عصيبة فى بيت حقير بلا كهرباء ولا ماء بالقرب من بلدة «كاستر».. كان والده يذل قصارى جهده لإقناع الممولين بفائدة التوسع فى مشروع رعى الأغنام بالبلدة وإخوته يذهبون للمدرسة بنفس الملابس يوميًا.. كان الفقر، وتدهور مستوى المعيشة هما السمة الغالبة فى حياة العائلة.. هو وحده استطاع أن يجد طريقًا أفضل فقد كان ملحقًا بإحدى الكليات فى باريس.. ولكن عودته كل صيف للبقاء مع أهله واسترجاعه لصدمة المنفى كان يعكر صفو حياته ويجعله يهب من نومه مذعورًا، قبل ظهور نور الفجر الأبيض، فيغمره ضوء باهت ضعيف، كاكى اللون يملأ

الحجرة ويشعره بالكآبة والاشمئزاز، ويرتعد جسمه رغم حرارة جو الصيف.. إن تلك البقعة الضوئية ذات اللون الكاكي تذكره بالموت! ولكنه لا يدري السر وراء ارتباط ذلك الضوء الكريه بالموت.. ليس موته فقط وإنما موت الجميع.. الفتيات الجميلات والأطفال وحتى الكلاب !

وأخيراً اكتشف «إميل» السر وراء هذا المنظر الغريب.. إن النافذة لا يمكنها حجب ضوء النهار من اختراق الغرفة، ولكن ورق التغليف الذى غطى النوافذ من عشرين عاماً - منذ وقت الحرب - ليحميها من التحطم هو الذى يعطى ضوء الفجر هذا اللون الباهت الكئيب الذى لم يُمحَ قط من ذاكرته.. منذ ذلك اليوم و«إميل» يستيقظ تقريباً كل ليلة وجسمه يتصبب عرقاً وأطرافه مثلجة، وفكرة الموت تطارده ببشاعة.. وحتى بعد زواجه لم يستطع وجود زوجته «نادية» الشابة السمراء الدافئة إلى جواره أن يزِيل رعبه..

«كلنا سنواجه الموت حتى ابني» هكذا كان يردد دوماً فى هذيان وهلع. وفى إحدى الليالى، صرخ «إميل» فرغاً فاستيقظت «نادية» على صراخه وضمته إلى صدرها قائلة: «إنك ترعجنى يا حبيبي.. حاول أن تنام». ولكن «إميل» تسمر فى مكانه وكأنما مسه السحر وأخذ يردد فى هدوء لزوجته: «كيف يمكن لنا أن ننسى الموت لحظة واحدة.. كيف يقبل الناس على أعمالهم رغم علمهم التام بأنه لا دوام لحال؟». وتحيطه نادية بذراعيها وتجيئه: «إنك ستصل إلى المجد وستصبح ثورياً عظيماً فى يوم من الأيام، وسترك وراءك ذكري خالدة.. ولكن نم الآن أرجوك..»

وانترع «إميل» نفسه من أحضان زوجته، وألقى بنفسه على الأرض وجلس واضعاً رأسه بين كفيه يردد فى همس: «إنها لا تفهم شيئاً هى أيضاً.. إننى بحاجة لمعجزة من الله حتى يشفينى من مرارة الألم والقلق التى تسيطر على كيانى.. إن كل شىء إلى زوال حتى الشهرة والعالمية!»

ولم يستطع «إميل» أن يتخلص من همومه إلا مع اشراق الصباح.. فنام منهك القوى..

## رحلة إلى عالم غريب

### روتريام

شعر الدكتور «سيمبسون» باختناق، وامتدت يده إلى رقبته فى محاولة يائسة لنزع الأنابيب الخضراء والبيضاء التى تخرج من أنفه وحنجرته.. حاول أن يتكلم ولكن صوته كان أضعف من أن يسمع.. نظر المريض من النافذة التى يكسوها الضباب فى المستشفى وأخذ يرقب الثلج المتساقط على «روتريام»، بينما تقوم الممرضة الضخمة البنية بتغيير زجاجات الأدوية والحقن إلى جواره.. وفجأة غاب المريض عن الوعي.. وأطلقت الممرضة جرس الإنذار.. لقد توقف قلب الدكتور «سيمبسون» الذى يبلغ من العمر ٧٢ عاماً وبدأ أنه دخل فى الغيبوبة الأخيرة

حضر فريق الإنعاش بعد ثلاث دقائق.. وأبدى طبيب حديث التخرج استياءه من زيادة وزن الدكتور «سيمبسون».. إنه لا يتنفس!! وقام الطبيب بقياس النبض ولكن يبدو أن المريض قد مات، فتبادل نظرة تساؤل حائرة مع طبيب التخدير حول جدوى محاولة إنعاش قلب المريض.. إنه ميت لا محالة.. ولكن الطبيب ساوره القلق لتقص خبرته، فقرر حقن المريض بمنشط قوى للقلب يكفى لتنشيط قلب حصان.. وانتظر الطبيب دقيقتين بعد حقن المريض ولكن بدون جدوى.. لقد مات الدكتور «سيمبسون» ! وأشار الطبيب إلى الممرضة برأسه دون أن يتفوه بكلمة وخرج يتبعه باقى أفراد فريق الإنعاش..

أسكت الممرضة بيدى الميت لتضعها إلى جواره.. وفجأة انطلقت منها صرخة جاء على أثرها الطبيب مهرولاً.. لقد أفاق الميت.. وأحدث منشط

القلب نتيجة مذهلة! ولكن الأمر الذى بهر الجميع هو أن يقوم المريض ويعتدل فى جلسته رغم كل الأنابيب التى تكبل حركته، ويطلب فى صوت هامس متعجلاً: «ورقة وقلم.. أريد أن أسجل شيئاً هاماً!»

بدا فريق الإنعاش فى حالة من الذهول.. وأخيراً تحركت المريضة لتجيب طلبه ومنحته مفكرتها الخاصة وقلمها.. وبدأ الميت الحى يكتب بيد مرتعشة دون أن يضيع لحظة واحدة. ماذا يكتب؟ إن ما يحكيه يعد نوعاً من الهذيان أو الجنون..

«لقد شعرت بأننى غبت تماماً عن الوعى - (هكذا بدأ الطبيب المعجوز ملاحظاته بعد أن كتب بإيجاز عن حالته الصحية التى كادت تجعله فى عداد الأموات). - وكأنتى انزلت إلى عالم غريب تماماً.. عالم مخيف لم أر نفسى فيه بصورتى الطبيعية، ولكننى كنت عبارة عن مكعب معلق فى شىء ما..»

«وما كدت أستوعب صورتى الجديدة والغريبة حتى شعرت بمن يقترب منى.. إنها كائنات غريبة ليست على هيئة مكعب مثل، ولكنها دائرية.. وقد بدأت أدرك وجودها وهى تقترب ببطء - رغم أننى لا أملك حالياً أى حاسة تقليدية من حواس البشر - لقد أرادت هذه الكائنات الدائرية أن أصبح مثلها.. فانتابتنى حالة من الرعب ولم أكن أفهم شيئاً مما يدور حولى، ولكننى شعرت بالتهديد فصرخت فيهن: ابتعدن عنى.. وحاولت أن أنطوى على نفسى بقدر الإمكان..»

«ولكن هذه الكائنات الرهيبة ظلت مكانها تحيط بى وتلمسنى بين حين وآخر وكانت لمساتها تزيد من رعبى.. لقد كنت أشبه بسجين فيلم مرعب وظللت أصرخ: لا تلمسنى.. إننى لا أريد أن أصبح مثلكن..»

«طوال حياتى لم أشعر بمثل هذا الخوف المرعب.. إنه الخوف من المجهول.. لقد شعرت بأن هذه الكائنات كانت تسخر منى مما كان يضاعف من رغبتي

فى إعادها عنى.. إبنى أعرف أن كلامى يبدو مشوشاً، وغير منطقى ولكن هذه هى تجربتى فى عالم الموت..

وأخيراً توقفت الكائنات الدائرية على مسافة منى دون أن تختفى وعندئذ رأيت نفسى فى أرض جرداء وكأننى مدفون فى رمال الصحراء.. ليس هذا بالكابوس العادى ولكننى أحسست بالضياغ..

وأخيراً تحول «مكعبى» إلى صورة إنسان ووجدت نفسى فى سربرى بالمستشفى وإلى جوارى المرضة.. فطلبت منها أوراقاً وقلماً لأسجل ما رأيت فى هذه الرحلة القصيرة العجيبة..

قد تتساءلون عن سر تعجلى لتدوين هذه الخيالات.. ولكننى ما كدت أستيقظ حتى شعرت بضوء غريب يملأ رأسى.. لقد استرجعت المشهد كاملاً.. وفى أقل من لمح البصر أيقنت أننى كنت مخطئاً وأن تلك الكائنات الغريبة لم ترد بى شراً.. بالعكس لقد كانت بالفعل حسنة النية، ولكنها سخرت من خوفى الشديد.. وهذا ما لم أستطع تحمله..

كيف أصف هذا الإحساس الهائل بالندم الذى أستشعره الآن؟ إن هذا الندم هو الذى دفعنى للقيام، وطلب تسجيل خيالاتى على وجه السرعة.. والآن أشعر أن تلك التجربة القصيرة والسريعة قد قلبت رأساً على عقب تصورى وأفكارى عن العالم.. إبنى على يقين من لقاءى مرة أخرى بهذه الكائنات الغريبة.. وأنتظر بفارغ صبر هذا اللقاء !

د. فيليب سيمبسون

كان الأمر المثير للدهشة بالنسبة للطبيب المعالج وفريق الإنعاش هو الحيوية الغامضة التى هبطت فجأة على المريض، الذى كان منذ دقائق قليلة يعتبر فى عداد الأموات.. هذه الحيوية التى مكنته بعزم وإصرار من كتابة هذه الرسالة الطويلة.. أما مضمون الرسالة فلم يثر اهتمامهم على الإطلاق !

## نشوة الاقتراب من الموت

باريس - لوس أنجلوس

سأقص عليك يا صديقي جو الظروف الغامضة التي جعلت القدر يلقي بي في هذه التجربة العجيبة.. مع بداية ربيع عام ١٩٨١ كنت وزملائي قد بدأنا إصدار الجريدة التي نعمل بها منذ عدة أشهر.. وبعد الانتهاء من عدد شهر أبريل، هدأت حدة العمل وبدأ كل فرد منا يبحث في روية بين مجموعة من المجلات عن أفكار لموضوعات جديدة.. وقد جاءت من نصيبي الجرائد الألمانية الشهيرة «شيترن» و «شيبجل» حيث أنني أجد اللغة الألمانية..

لم تمض ثلاث وعشرون ساعة حتى عثرت على ضالتي.. وكان مقالاً بعنوان «قدم في الآخرة» في زاوية أدبية بمجلة «شيبجل» تحمل اسم «أبحاث عن الموت».. إنني أتذكر هذا الموقف تمامًا، فقد كنت على موعد مع صديق على العشاء، وبدأت في القراءة ولم أستطع أن أرفع عيني عن المقال حتى أثناء هبوط درجات السلم والتجول في الشارع وحتى وصولي إلى مكان اللقاء في مطعم «البيتزا» الشهير «ارماندو» بشارع «توربيجو»..

أثناء قراءة هذا المقال أحسست وكأن تيارًا كهربائيًا يسرى في أوصالي.. لقد تناول المقال الروى الغريبة للأشخاص الذين عادوا إلى الحياة، وتم إنعاش قلوبهم في اللحظة الأخيرة بعد أن كانوا على حافة الموت.. كان المقال مؤثرًا رغم أنه لم يتجاوز ثلاث صفحات وموضحا بصور اثنين من المشاهير اللذين واجها الموت في حوادث رهيبية، كادت تودي بحياتهما وهما النجمة الأمريكية اليزابيث تايلور، والمغنى الشهير «شارل أزنافور»... وإلى جوار صور المشاهير

التي استهدفت جذب اهتمام القارىء، وضعت صورة البطل الحقيقي في القصة.. إنه دكتور «رونالد سيجل» العالم النفسى بجامعة لوس أنجلوس والذي فر علميا الرؤى الغريبة للعائدين من رحلة الموت..

لقد تذكرت فيما بعد أننى سمعت بهذه الرؤى المثيرة من قبل، وكانت المرة الأولى من خلال برنامج تليفزيونى.. كان البروفيسور «روبير بلانشار» أستاذ الفلسفة بجامعة تولون (والذى ذهب للقاءه فى وقت لاحق) يشرح للمشاهدين مغامراته الفريدة من نوعها.. كان يبلغ تسعة عشر عاماً عندما أجريت له عملية فتق فى مستشفى «بواتيه».. وبعد انتهاء الجراحة شعر روبر بأنه بدأ يسترد الوعي ولكن خارج جسده.. كيف حدث ذلك؟! لقد شعر بنفسه يسبح فى فضاء خالٍ «مربع» تعلوه السحب. إنه الموت بلا شك! والغريب أن تلك الحالة الشعورية بدت له ممتعة فلم يشعر أبداً خلال حياته بمثل هذا الإحساس الرائع، لقد كان هادئاً جداً، حرّاً تماماً مثل الهواء.. وفى لحظة خاطفة جذبته قوة غامضة إلى أسفل وحاول أن يقاوم العودة ولكن دون جدوى.. كانت الجاذبية تشده بقوة إلى أسفل تجاه جسده المادى، ورأى روبر جسده من فوق ممدداً فاقد الوعي على بعد أمتار قليلة والراهبات المرضعات يحظن به من كل جانب.. استمر هذا المشهد لحظة واحدة ثم حضرت رئيسة المرضعات وبدأت تصفع الشاب بعنف حتى يفيق.. وهنا حدث شيء لم يُمنح قط من ذاكرة روبر، فقد شعر أنه يدخل داخل إطار جسده تدريجياً، وكأنما يرتدى ملابس من قمة الرأس.. وكان انطباعاً مؤلماً أن يشعر القادم من عالم الموت بالمعاناة أثناء عملية الانزلاق داخل جسده، وكأنما يرتدى مقاساً أصغر بمراحل من مقاسه الفعلى.. وعندما استقرت نظراته أخيراً خلف عينيه وكأنه يرتدى نظارة، بدأ الجسد الهامد يتحرك وتنفست المرضعات الصعداء فقد ظنوه ميتاً لا محالة.

أعقبت رواية البروفيسور «بلانشار» فى البرنامج التليفزيونى قصص أخرى أكثر غرابة لبعض الناجين من الموت.. قال العائدون إنهم بمجرد شعورهم بالتواجد خارج أجسادهم جذبهم ضوء باهر متألق تنبعث منه «طاقة حب

لا نهائية» وكان الضوء الذى ينبثق من أغوار نفق عميق يجذبهم إليه وكأنهم فراشات هائمة..

وشملت بعض الرؤى فى رحلة الموت تفصيلات أخرى عجيبة.. قصور من الكريستال وفراشات ضخمة، ومواكب راقصة يقودها الآباء الذين سبقوهم إلى العالم الآخر منذ زمن طويل..

هذه الرؤى الغريبة لا بد لها من تفسير علمى لدى الدكتور «رونالد سيجل»، على الأقل بحكم معرفته الطويلة وخبرته بكيمياء المخ.. فالخ البشرى عالم مليء بالأسرار يحتوى على مئات المليارات من الخلايا العصبية التى ترتبط ببعضها بآلاف الجسور..

إن القدرة العجيبة لهذه الخلايا على نقل الأحاسيس والأفكار لا يمكن أن يضاهيها أى كمبيوتر مبرمج على أحدث نظام علمى.

قرأت عددًا من المقالات حول «العقدة العصبية» - موضع اتصال خلية عصبية بأخرى - عام ١٩٧٧ عندما قررت الجريدة التى أعمل بها تخصيص جزء أكبر من مساحتها للموضوعات العلمية.. وفى عام ١٩٨١ احتلت «العقدة العصبية» مكاناً بارزاً بين أبحاث المؤتمرات العلمية فى علم الأعصاب.

باختصار فإن آلاف المليارات من العقد العصبية داخل المخ البشرى تخزن داخلها المعلومات التى تساعد الإنسان على البقاء وتنقلها إليه عن طريق رسائل كيميائية.. فهناك رسائل توقظ من النوم.. وأخرى تسبب الضحك، وغيرها تحرك الغرائز الجنسية وتفتح الشهية للطعام وتطلق الرغبات فى الجرى أو النوم أو حتى فى أن تعض شخصاً ما..

إنه خليط عجيب قد نعتبه صيدلية حقيقية، أو سيمفونية كيميائية تنتشر فى مليارات الخلايا وبرسائل مختلفة فى نفس الوقت.. والمخ هو المهيمن الأول على تصرفات الإنسان لامتلاكه أكبر مخزون من المواد الكيميائية التى يفرزها الجسم بصورة طبيعية أو بتأثير عقاقير طبية، فتحول الإنسان من حالة

لأخرى فى فترة وجيزة.. فالمورفين الذى يفرزه مخ الإنسان مثلاً يساعد على تسكين آلامه الجسدية.. ويختلف تأثير العقاقير باختلاف جرعاتها.. إذ أن تعطى جزء من المليون من جرام «السيروتونين» أكبر من المعدل المطلوب يؤثر على المخيخ فيحول الإنسان من حالة المرح إلى الغضب ومن الخمول إلى النشاط أو اليأس تبعاً للجرعة..

ويشرح الدكتور «رونالد سيجل» فى المقال الذى نشرته الجريدة الألمانية سر النشوة الغرية التى يشعر بها المحتضر، وهو يضع إحدى قدميه على أبواب الآخرة.. فعندما يشعر الكائن الحى باقتراب الموت يفرز المخ كمية ضخمة من العقاقير داخل الخلايا العصبية محدثاً بذلك جرعة زائدة داخلية وطبيعية تخلق نوعاً من السعادة لدى المحتضر.

وهكذا يؤكد الشهود الذين مروا بتجربة الاقتراب من الموت لجريدة (شبيجل) أننا جميعاً سنشعر بهذه الجرعة الإضافية الجميلة التى ستضمن لنا رحلة متممة مع اقتراب نذير الموت.. إذن لا داعى للفرع من فكرة الموت أو المحطة الأخيرة فى حياة كل كائن حى.. إن رهبة الموت قد غلفت بأطار جميل ساخر فأصبح لقاءه وكأنه موعد مع السعادة!

وفى صباح اليوم التالى عرضت الموضوع على مجلس التحرير فى الصحيفة وقد أثارت اهتمام الجميع فكرة (رؤية الموت كما تفسرها كيمياء المخ) أو بمعنى آخر (دور الموصلات العصبية) فى المحطة الأخيرة.. إن الموضوع فى حد ذاته مثير وغامض لتعلقه بفكرة الموت ولا يحتاج لاستخدام مزيد من التعبيرات المؤثرة.. وأيقنت أن معرفتى بكيمياء المخ ستتيح لى تفسير هذه الرؤى. فليحيا العلم !

قطعت التذكرة إلى أمريكا فى طريقى للقاء العالم النابغة الدكتور (رونالد سيجل) أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا.. وفى لوس أنجلوس التقيت به، كان وجهه مألوفاً لدى منذ رأيت صورته فى مقال (شبيجل) بنظارته الطيبة

وشره الطويل وروحه المرحه.. كنت أحاول خلال الرحلة أن أتخيل كيفية اكتشاف هذا العالم لسر الجرعة الزائدة وراء رؤى الموت.. إنه عالم نفسى وليس متخصصاً فى كيمياء الجهاز العصبى.. ولكنه بالطبع اشترك مع باحثين آخرين فى التوصل لهذه النتيجة.

وانتظرت بفارغ الصبر لقاء العالم النفسى وأنا أمسك بالمقال بين يدى وانتبهت على إضاءة أركان الطائرة بكلمات (أربطوا الأحزمة) وبدأ أحد المسافرين يضحك بصوت عال ربما ليتناسى أنه يجلس على ارتفاع عشرة آلاف متر فوق سطح الأرض! أما عن نفسى فقد كنت أشعر بحزن صامت وحنين إلى الوطن رغم فضولى وشغفى المتزايد لمعرفة سر الجرعة الزائدة..

إن العلم يحطم بتقديمه المتواصل كثيراً من الروايات الخيالية التى ارتبطت قديماً بذهن الانسان والتي قد يكون لها بالفعل أساس علمى.. تقول نظرية (بيج بانج) أن هذا الكون كان يتركز فى نقطة من لا شىء أصغر حجماً من رأس الدبوس منذ ثمانية عشر مليارات من السنين! إنه شىء خارق للزمن والمكان ومع ذلك فإن ٩٠٪ من العلماء يقرون هذه النظرية التى تبدو لى وللكتيرين وكأنها أسطورة خيالية.

إن نظرية «بيج بانج» قابلة للتغيير مثلما حدث لتصور الإنسان القديم للموت والذى بدله الدكتور «سيجل» رأساً على عقب.. إننى أتخيل هذا البروفيسور بطلاً لأحدى الأساطير اليونانية..

وأفقت من تأملاتى الغريبة لأجد أمامى ساعات طويلة أخرى قبل الوصول إلى «لوس أنجلوس»، فأخرجت من حقيبتى بعض الأوراق التى عثرت عليها فى باريس فى اللحظات الأخيرة.. معظمها تقارير طبية عن أشخاص خاضوا تجربة الموت لبضع دقائق..

فى إحدى غرف الإنعاش المجهزة ترقد المريضة وحوها الأطباء يتابعون مؤشرات جهاز رسم القلب ويقومون بعملية شفط للمخاط لتسهيل التنفس..

وفجأة توقف القلب والتنفس لمدة ثلاث دقائق.. وأصر الجراح على عمل شىء.. فقام بتدليك صناعى لقلب المتوفاة لمدة خمس عشرة دقيقة وهى مازالت تحت تأثير المخاليل الطبية.. أخيراً عاد القلب ينبض وأفادت المتوفاة من غيبوبة الموت والجميع فى حالة ذهول يحاولون تهدئتها، وهى تهذى بكلام غير مفهوم وتصرخ: «لا أريد أن أعود».. ماذا حدث؟ وأين كانت هذه المرأة!؟

عندما استردت السيدة هدوءها بدأت تقص بعض الحكايات.. (لقد مررت بالعديد من الأضواء التى استقبلتنى بترحاب بالغ حتى وصلت إلى طاقة كبرى تشع نوراً نقياً منحتنى إحساساً بالنشوة والمتعة وكأنها شمس مشرقة تسلط أشعتها على من حولها.. لقد كنت فى نعيم الآخرة! ولم تستطع هذه السيدة أن تنسى أبداً التجربة الممتعة التى بددت لديها أى شعور بالخوف من الموت..

استغرقت فى قراءة عشرات القصص المماثلة حتى أعلنت المضيفة عن هبوط الطائرة فى «لوس أنجلوس».. لم يبق أمامى سوى لحظات لإلقاء نظرة سريعة على آخر أوراقى.. إنه كتاب صغير غلافه أحمر أهدها لى صديق ليلة السفر وقد بدا لى غريباً حتى فى عنوانه.. (كتاب أهل التبت عن الموتى)، لغته غير مفهومة كأنها طلاسم! تقول بعض سطور الكتاب: «فى نفس الوقت يظهر الضوء الأخضر الشاحب لعالم الحيوانات. وتشعر أن قوة خيالاتك تدفعك للخوف من الضوء ذى الألوان الخمسة.. وتحاول الهرب ولكنك تجد نفسك مشدوداً نحو الضوء الأخضر الشاحب.. لذلك يجب أن تنسى خوفك من الضوء وألوانه الخمس بل وتسعى إلى معرفته عن قرب».

لم أفهم شيئاً مما قرأت ولم ينقذنى من محاولة فك هذه الطلاسم سوى وصولى إلى «لوس أنجلوس».

إنها أولى رحلاتى إلى «لوس أنجلوس».. أحببت المكان فور رؤيته.. إنه يشبه شمال أفريقيا.. نفس المباني والأشجار والنخيل والرياح الشرقية التى

تهب عليها. كانت فيلا الدكتور «رونالد» فى قلب «هوليوود» متواضعة. واستقبلنى الرجل باسامة هادئة..

فى مدخل البهو فوجئت بسيدتين فى مقتبل العمر تجلسان فى وضع القرفصاء، تقومان بفرز كميات كبيرة من روايات الرعب وكتب التحليل النفسى.. وامتلات الجدران ببعض الرسومات عن مدمنى الكوكايين وأخرى لجماعات هندية تؤمن بالقوى الخارقة للطبيعة وتسجل فى لوحاتها الأساليب المبتكرة فى التأمل.

قال لى البروفيسور «سيجل» الخبير فى طب العقاقير إنه جعل من جسمه معملاً خاصاً بتناوله الكثير من العقاقير ليتفهم جيداً تأثيرها عليه.. ولكنه عاد ليؤكد أن شخصيته لم تتغير ولم تتأثر بهذه التجارب الخطيرة..

كانت بداية لقائى بالبروفيسور «سيجل» مطمئنة، فقد خشيت أن يكون من أولئك العلماء المنزليين عن عالمنا، فيشرح لى الحب مثلاً على طريقة اكتشاف جزئيات الحب لدى الفئران.. ولكنه شرح لى ببساطة أن الخيالات التى يراها المحضر تشابه تماماً مع تلك التى يشعر بها الشخص العادى عند تعاطى بعض الأدوية المخدرة.. «وعندما يحضر الإنسان تنخفض حيويته وتقل طاقته وتضعف حواسه وتلاشى تدريجياً صلته بالعالم الخارجى.. إن الأمر يشبه إغلاق نوافذ المنزل بإحكام فتصبح حالة الوعى لدى المحضر منغلقة تماماً على نفسها، ولا يرى شيئاً من العالم الخارجى وفى المقابل يجد انعكاس ظله على زجاج النوافذ المغلقة ويتخيل أن العالم يقف عند هذا الحد وكأنه يشاهد عرضاً سينمائياً لرغباته المجنونة المكبوتة، التى تظهر أمامه فجأة على شاشة عرض خاصة جداً، فيتخيل المحضر نفسه وسط مزارع خلافة وأشجار تتحدث وفرشات عملاقة.. ويرى فى بعض الأحيان مشاهد غريبة.. إن هؤلاء المحضرين يعلمون جيداً باقترابهم من حافة الموت، ومن ثم يتخيلون أنفسهم فى الجنة ونعيم الآخرة».

ويستطرد محدثي قائلاً: إنك لا تستطيع سوى أن تقدر وتعجب بهذه الأوهام الخادعة التي يزدونا بها المخ في اللحظات الأخيرة من الحياة، بل إن الإنسان ليرغب أن يمر بهذه الخيالات الخالصة.. ومن منا لا يفضل الإحساس بالسعادة حتى ولو كانت سراباً عند اقتراب الموت بدلاً من الوقوع في دائرة اليأس وهو يعي تماماً أنه يغادر عالم الأحياء؟! إنها ظاهرة تستحق الدراسة..

وهي بالفعل السبب الذي جئت من أجله إلى «لوس أنجلوس» متشوقاً لمعرفة المزيد من الجرعة الزائدة أو الدور النهائي للمواصلات العصبية في المخ في اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان.

- إنه أمر سهل تصوره ولو أنه خارج تخصصي ولا أريد الاستطرد فيه.

- مجرد تصور؟! ولكن مقال شيبجل يتناول عملية كيميائية محددة داخل الجهاز العصبي يحدث بها خلل أثناء سكرات الموت..

- نعم، أجاب «رونالد سيجل» بنبرة هادئة.. ولكن هؤلاء الصحفيين الألمان اختلط عليهم الأمر قليلاً.. إنني عالم نفسي وكيمياء الأعصاب لا تدخل ضمن تخصصي.. ولكنني استنتجت أن بعض المواد المسكنة للألام تفرز في المخ في اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان.. فاكشف دور الهرمونات في العقد العصبية لايزال - كما تعلم - حديث العهد.. لنتظر قليلاً وستوصل إلى الحقيقة وراء ما يحدث للكائن الحي عند إحساسه بأن الموت وشيك الوقوع.

هل الحقيقة مجهولة.. أم حدث سوء تفاهم؟ وهل جئت من فرنسا خصيصاً من أجل إكتشاف لم يتوصل إليه هذا العالم بعد؟ لقد تخيل «سيجل» الأمر فقط دون أن يدرس أسباب تلك الزوبعة العصبية التي تطلق الجرعة الزائدة في المخ.. ولكنه بالتأكيد قد توصل إلى شيء ما في تحليل تلك الظاهرة.. قررت أن أترك مؤقتاً مجال كيمياء المخ. وأسأل الدكتور (سيجل) عن الطريقة التي توصل بها إلى استنتاج الجرعة الزائدة.. لا بد أنه حصل على معلوماته من خلال قصص بعض الذين خاضوا تجربة الاقتراب من الموت.

كانت إجابته بالنفى صدمة أخرى لى... فهو لم يهتم على حد قوله باستقصاء المعلومات من أصحابها، ولم يستفسر عن شيء ولو بسؤال حالة واحدة! يقول محدثي: «إن العديد من الأبحاث قد تناول هذه الظاهرة فى السنوات الأخيرة وتكفى قراءة واحد منها لفهم تأثير العقاقير على حالة الوعي لدى الإنسان والتي تشبه تماماً مفعول الجرعة الزائدة من حيث التفاعل الكيميائى لخلايا المخ».

تعجبت كيف أن البروفيسور الكبير لم يهتم بدراسة هذه الظاهرة.. إنه لا يبدو مخادعاً ولكن سلوكه المتحفظ ينم عن خوفه من شيء ما.. حاولت أن أنقل إليه إحساسى قائلاً: (قد تخشى ياسيدى مثلاً عدم مواكبة أوروبا للأحداث العلمية المتطورة فنحن مازلنا نؤيد الحد من انتشار المفاهيم والسلوكيات الغريبة ولكن أمريكا - كما ترى - هى بلد العجائب والأطباق الطائرة وقبائل (كوكلو كس كلان).

ويجيبني «رونالد سيجل» وقد بدا على وجهه الضيق: «هناك موجة من المكارثية النفسية أو الإرهاب الفكرى تحاول أن تغمر بعضنا من صفوة علماء هذا البلد فقى الستينات اهتم أطباء علم النفس بما يسمى «الد اس. دى» عقار الهلوسة - وأكدوا أنه سيحدث انقلاباً فى هذا الكوكب.. واليوم اتجهت أنظارهم إلى شيء آخر هو: «ان. دى. اى» وهى اختصار تعبير (تجربة الاقتراب من الموت) وما يعقبها من خيالات ورؤى مختلفة.. وبذلك يجد هؤلاء العلماء للظواهر غير المنطقية أساساً علمياً وهو أمر يثير القلق..

بدأ حديث البروفيسور يشد انتباهي فقد ألقى الضوء على قضية هامة.. إنه لم يتعامل مع هذه الظاهرة باعتباره رجل علم ولكن بحرص رجل المبادئ على عدم التعرض إلا للحقائق العلمية الثابتة، ولذا لم يشأ الاستطراد فى افتراض نظريات حول هذه الظاهرة دون بحث أو دراسة..

فالأبحاث التى تركز حول الموصلات العصبية تدعمها أساساً الصناعات الدوائية. وفى هذا المجال تتعدد الاكتشافات فلا يكاد يمر أسبوع واحد دون

أن تعلن المجالات العلمية عن اكتشاف عقار جديد للمخ: «دواء للخوف».. «دواء للحب».. و«دواء للذكاء» ويحاول آلاف الباحثين فهم كيفية تأثير هذه العقاقير على المخ حتى يتسنى لهم مساعدة الإنسان للوصول إلى حالة التوازن الكيميائي الداخلي - كما يطلق عليها البروفيسور «لابوري» - أو بمعنى آخر السعادة الشخصية.. وللأسف فإن أياً من هذه الاكتشافات لم تتم في المجال الذي يهتم به محدثي.. وهنا طرأ لي سؤال ساذج فسألت «رونالد سيجل» عن أعدائه الذين يحاربهم !؟

قبل أن يجيبني اصطحنى العالم النفسى إلى غرفة مجاورة وأمام مكتبه الخاصة أشار إلى سلسلة من الكتب ذات أغلفة متعددة الألوان وقال: «إنهم كثيرون فهم يستغلون القصص الغريبة والشعارات الرنانة حول الموت ليحققوا ثروات ضخمة. هذا كتاب بعنوان «صوت من الآخرة» للعالم النفسى (ت. و) و«قضيت ثلاثين دقيقة مع السموات» من تأليف إليزابيث. هـ (ربة بيت بسيطة أصبحت وسيطة بين البشر والأرواح فى مجال التنويم المغناطيسى)، أما كتاب «الموتى يتصلون بنا» فهو من تأليف القس الموقر جى، وهناك أيضاً كتاب «الموت غير موجود» للمحلل النفسى (س).

لقد أدركت اللعبة أخيراً.. إنه سوق ضخم أترى من خلاله هؤلاء الذين يدعون العلم ويتاجرون به !

وعندما أبدت دهشتى من أن يؤثر هذا التيار فى بعض صفوف العلماء على حد قول البروفيسور.. أكد لى أن الشئ الغريب دائماً ينال أكثر من قدره، فهو يجد باستمرار من يدفع به للأمام بل وقد يسلم به بعض الأذكىاء..

ولكن الشئ المؤكد هو أن أزمة القيم والأخلاقيات تبعث فى نفوسنا مخاوف قديمة فى أعماقنا حُجبت عن وعينا فى الحياة اليومية.

إنه لأمر غريب أن يشعر الجميع حتى هؤلاء العلماء المخادعون بالخوف ولكن كل منا بلاشك أسير إحساسه بالفزع من شئ ما.

لقد طلبت من رونالد سيجل إعطائي أسماء بعض العلماء من أنصار التزعة  
الظلامية التي تسعى لترويج المفاهيم الغريبة، وتحاول أن تنشر قلوبها فوق  
المجتمع العلمي.

-أعتقد أنك سمعت عن الفقرة الشهيرة فى السيرك التي تقدمها مدام  
(كوبلر - روس).

- ومن تكون هذه المرأة ؟

- إن لم يكن هذا الاسم «إليزابيث كوبلر - روس» يعنى شيئاً بالنسبة  
لك فلا بد أن تشتري العدد الأخير من مجلة «بلاى بوى» حيث يوجد حوار  
مع هذه السيدة وهذا بالطبع يعطيك فكرة عامة عنها، إن هذه المرأة تدعى  
كونها طبيبة نفسية وتعتقد جلسات علمية من نوع خاص !

ويضحك البروفيسور ساخراً، ثم يدعونى لمشاهدة اللوحات الهندية على  
جدران المنزل عن قرب، وأستشف من حديثه أن الحوار قد إنتهى.

وقبل مغادرة المكان طلبت أسماء أخرى لبعض العلماء الذين يتاجرون بالقصص  
الخيالية ورشح لى البروفيسور اسم عالين هما: رايموند مودى وكينيث ريننج،  
ثم زودنى بنسخة من آخر أحاديثه لمجلة «عالم النفسى الأمريكى» قائلاً: «لابد  
من وقف هذه المهزلة نهائياً».

## روعة الحياة بعد الموت

لوس أنجلوس - جامعة ستورز

كانت هوليوود مشرقة بمناخها الصحو وربيعها المزدهر ولكنني لم أستمع بهذا الجمال.. فقد أصبت بالإحباط بعد لقائي بالدكتور سيجل الذي قضى على أحلامي في عمل سبق صحفى علمي.. فحتي مقاله في مجلة «عالم النفسى الأمريكى» لم يمدنى بأية معلومات تختلف عما ورد في حديثنا.

أخرجت المقال من حقيتي، وبدأت أقرأ بعصبية آملا في العثور على معلومة جديدة، ولكنني لم أجد شيئا ذا أهمية يصلح مادة لموضوع علمى صغير.

باللغارا لايمكن أن أعود إلى باريس بخفى حنين.. ويبقى حل آخر.. أن أحول الموضوع إلى مجرد سرد لقصص العائدين من الموت.. ياللبشاعة، تذكرنى هذه القصص بالأمريكيين الذين يطلبون تجميد أجسادهم بعد الموت حتى لا تتحلل وذلك مقابل عشرة آلاف دولار آملين أن يجد العلم يوماً ما علاجاً لأمراضهم فيتم إحيائهم مرة أخرى!

- لقد قرأت في صحيفة (ليراسيون) الفرنسية عن مأساة ولدين قاما بتجميد جثتى والديهما ووقعا فى شرك جمعية وهمية ابتزت منهما آلاف الدولارات. بدعوى إصلاح الثلجات المخصصة للذئب واستمرت المهزلة حتى اكتشف الأبناء وجود جثتى والديهما فى حالة تعفن.

فى الحى الذى يمتد بمحاذاة المحيط، وجدت نفسى مستغرقاً فى التفكير رغم الزحام من حولي.. شباب يمارس الرياضة على الشاطئ، وفتيات يقدون فى شرفة الكافيتريا.

لم أجد أمامي خياراً سوى إعادة صياغة المعلومات التي حصلت عليها، ولكن لا بد لي من مقابلة نماذج من هؤلاء العلماء المخادعين الذين يحاربهم الدكتور سيجل بضرارة.. ومنهم على سبيل المثال هذه السيدة الغريبة «إليزابيث كوبر - روس» التي نشر لها مؤخراً حديث في مجلة «بلاى بوى»

اشترت المجلة ولكنني لم أجد الحديث المذكور.. لا بد أن الدكتور سيجل أخطأ العدد.. وأخيراً حصلت على العدد المطلوب الذي نشر فيه الحديث منذ ثلاثة أشهر واستلقيت على الشاطئ أتابع واحداً من أغرب الأحاديث الصحفية التي قرأتها في حياتي.

إنها امرأة أنثى.. هكذا تبدو في صورها الثلاثة التي التقطت لها أثناء إجراء الحديث.. فى الخمسين من عمرها ذات وجه نضر مليء بالحوية، مقطبة الجبين وكأنها تبذل مجهوداً لمحاولة توصيل أفكارها للصحفي الذي يدير معها الحوار.

إنها طبيبة نفسية من أصل سويسرى.. تمارس مهنتها منذ بداية الخمسينات فى الولايات المتحدة، ويتوقع لها البعض أن تصبح «أكبر متخصصة غربية فى مساعدة المحترنين» أو بمعنى آخر نسخة متطورة من الأم تريزا.

تصفحت مجلة بلاى بوى الشهيرة ووقعت عيناى على الصور العارية.. ماذا يعنى وجود مثل هذا الحديث فى مجلة إباحية؟... تقول المجلة: إن هذه السيدة المشهورة ستوصل قريباً إلى أسلوب جديد لعقد الجلسات الروحانية.. «ستقوم برحلة خارج جسدها» ! وتضيف إليزابيث «سأظل دائماً نفس الشخصية المتشككة العنيدة مثلما كنت أثناء دراستى للطب فى زيورخ.. إننى إنسانة عملية لا أصدق إلا ما أتأكد منه بنفسى».. ويستمر الحوار :

- كيف تريدان أن يصدقك الناس وأنت تتحدثين عن رحلة إلى عالم الموتى.. إنه شئ غير علمى؟

- إننى لا أحاول إقناع أحد ولا أكثرث بما يقال عنى.

بعد سنوات من الشهرة والمجد.. فصلت إليزابيث كويلر من الجامعة واستقرت مع مجموعة من الأصدقاء فى «إسكونديدو» بأقصى جنوب كاليفورنيا، هناك أسست جمعية (شانتى نيلاية) وهو اسم يعنى بيت السلام بلغة البراهمة.. وأصبح شغلها الشاغل هو مساعدة المرضى الميئوس من شفائهم، وتقديم النصح لهم وخاصة للآباء الذين يصاب أبنائهم بأمراض قاتلة.

أحسست برغبة عارمة فى لقاء هذه المرأة.. وساعدنى فى ذلك الصحفى الشاعر لويس ماك آدمز - مراسل جريدتنا فى لوس أنجلوس - الذى زودنى بكافة الوسائل للاتصال بجمعية (شانتى نيلاية).

حاولت الاتصال عدة مرات بلا جدوى.. جاءتنى ردود مختلفة.. إنها غير موجودة.. متعبة.. امتنعت عن مقابلة الصحفيين، لقد بدت لى إليزابيث وكأنها حصن يصعب الاقتراب منه فقررت الذهاب بنفسى لاستطلاع الأمر. على بعد مائة كيلومتر بالسيارة، كان المكان رائعاً.. تلال ذات رمال حمراء وأشجار الصنوبر الخضراء الداكنة ومباني المزارع المكسيكية التى صممت على هيئة طابق واحد، وترع الصرف التى تحولت إلى حمامات سباحة.

فى مكتب صغير استقبلتنى امرأة شقراء ضخمة البنية تبدو على ملامحها آثار الإجهاد، وقدمت لى كتيباً صغيراً مؤكدة لى أن إليزابيث غير موجودة.. تصفحت الكتيب «اللقاءات القادمة عن الحياة والموت ورحلة الانتقال» مع إليزابيث كويلر فى نيويورك من ٢٣ إلى ٢٨ أبريل وفى شيكاغو من ٦ إلى ١١ مايو وفى شوتجارت من ١٦ إلى ٢١ مايو.. وتعدد المؤتمرات يوم ٣ مايو بميامى ويوم ١٢ يونيو فى بال.. إلخ).

وبادرتنى المرأة الشقراء قائلة:

- إن إليزابيث لن تعود إلى كاليفورنيا قبل منتصف يونيو. فبعد جولتها الأوربية ستشارك فى عدة مؤتمرات فى كلية طب دنفر فى كولورادو .

- ولكن رذك عبر التليفون لم يكن واضحاً..

وابتسمت قائلة:

- إنه رد فعل طبيعي بحكم العادة.. فالصحفيون أصبحوا مزعجين في السنوات الأخيرة.

شردت بذهني للحظات وأنا أتأمل جدول أعمال مغلق على الحائط.

- ولكنني أعتقد أن الدكتورة كوبلر قد فصلت من الجامعة.. وقاطعتني في حدة:

- هناك أكثر من ١٥٠ ألف حلقة دراسية ومؤتمر وندوة وجلسات عمل مختلفة تنظم سنويا حول أعمال إليزابيث.

- وأين يتم ذلك ؟

- في كل مكان.. في المستشفيات ومدارس التمريض ودور المسنين والأديرة.. وهنا في شانتى نيلاية.

نظرت إليها بتمعن متسائلاً:

- وماذا يحدث في هذه الجلسات التي تنظمها إليزابيث حول الحياة والموت والانتقال ؟

- لا بد أن تشارك بنفسك في إحداها فمن الصعب وصفها.. إنها تسعى لتخليص الإنسان من السلبية والكبت الانفعالي داخله.

- هذه ببساطة عملية علاج نفسي!؟

- نعم ولكن من خلال الإعداد لمرحلة الموت.

للأسف لم يكن لديها وقت لاستكمال الحديث معي.. كانت مضطرة للطيران إلى بوسطن حيث سافرت مجموعة شانتى نيلاية.

قبل الرحيل سألتها إذا ما كانت تعرف شيئاً عن العالمين رايموند مورى، وكينيث رينج اللذين صرح الدكتور سيجل بشكوكه نحوهما، وكان ردها بالإيجاب مفاجأة لي.. إنهم يعرفون بعضهم جيداً. إنها شبكة حقيقية.

وعلمت أن العالم الأول طبيب نفسى فى فرجينيا والثانى أستاذ لعلم النفس بجامعة كونكتيكات.

لدى عودتى إلى لوس أنجلوس بادرت بالاتصال بالعالمين اللذين حصلت على أرقام هاتفهما من السيدة الشقراء..

أخيراً جئنى صوت رينج عبر الأثير.. ووافق أن يستقبلنى فى جامعة كونكتيكات.

بادرت بحجز تذكرة الطائرة فى شوق للقاء هذا الشخص المريب.

\* \* \*

هناك نوعان من العلماء.. الأول يحترم النظريات الثابتة التى نشأ عليها ويعتبر مهمته الأساسية هى دمج أى اكتشاف جديد يتم التوصل إليه من خلال أى مجال للإدراك.. سواء كان العين أو الأذن أو البارومتر أو الرادار أو غرف الاختبار أو التليسكوب أو حتى جهاز تحطيم نوى الذرة، بحيث يصبح جزءاً مكملًا لهذه النظريات.. وفى حالة فشل عملية الاندماج يقوم هؤلاء العلماء باستبعاد الاكتشاف الجديد مؤقتاً.

والنوع الثانى من العلماء يندى على العكس - احترامه للأفكار والاكتشافات الجديدة، وفى حالة نجاح دمج الاكتشاف الجديد مع النظريات القديمة يتصرفون تماماً مثل علماء النوع الأول.

أما إذا فشلت عملية الدمج فإن سلوكهم يختلف وتصبح مهمتهم الأساسية هى متابعة الاكتشاف الجديد لفترة أطول ومحاولة دمجها فى أى نظرية أخرى. يعتبر علماء الفئة الأولى إداريين ناجحين فى حين يعد علماء الفئة الثانية مكتشفين على مستوى عال.

ويميل العلماء الإداريون بطبيعة الحال للحفاظ واتهام العلماء المكتشفين بأنهم لا يقدرّون المسؤولية العلمية.. ولكن الأمر يستحق فى بعض الأحيان

مخاطرة العلماء المكشفين خاصة إذا كان متعلقاً بإعادة النظر فى إحدى الحقائق الثابتة مثل الموت.

فى المرحلة الأولى التى تقتضى التأكد من وجود الاكتشاف الجديد يكون العلماء الإداريون على حق فى خوفهم من اندفاع وتهور المكشفين.. ولكن الإداريين قد يصبحون مصدرأ لخطر إذا كان الاكتشاف من الأهمية بحيث لا يمكن إغفاله.

هنا يتنكر الإداريون للاكتشاف الجديد، ويحاولون خنقه وتجاهله.. وعلى الرغم من سلوكهم الخطر، فإنهم يمثلون ركيزة أساسية فى مجال العلم مثلما تحمى كرات الدم البيضاء الجسم من أى وافد جديد.

عندما يكبر الاكتشاف وتذاع أخباره بين الجماهير التى تنهافت على معرفته يصبح من الصعب تجاهله، وهكذا بدأ الحديث عن الموت أو حالة الوعى لدى المحترفين يشد انتباه المكشفين وعامة الناس على حد سواء.

يتسمى كينيث رينج لنوعية العلماء المكشفين، وقد حالفه الحظ فى أن يصبح الرجل المناسب فى المكان المناسب وفى الوقت المناسب، إنه أستاذ لعلم النفس بجامعة ستورز التى تقع وسط غابات الأرز الجميلة فى نيو - إنجلند.. يشبه مكتبه فى الجامعة حصناً صغيراً.. يشعر الداخلى إليه أنه يمشى بين ممرات وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا»، وقد وضعت عليه لافتة «المؤسسة الدولية لدراسات ظاهرة الاقتراب من الموت» واختصارها «اياندى».

كان كينيث رينج آنذاك (عام ١٩٨١) مديراً لهذه المؤسسة الغربية.. وهو رجل أشقر ضخم البنية مبتسم، ملئ بالحيوية يرتدى نظارة طبية سمكية.

كان لقاؤنا الأول غريباً !

- اتبعنى إلى مكبى.. لدى اجتماع مع الأعضاء.. بعدها سأذهب لتناول ساندوتش وحينئذ يمكننا التحدث قليلاً. هكذا بادرنى بالقول فتبعته جرياً على السلم لأعرف المكتب.

- إنه اجتماع روتيني نصف شهري للفريق التنفيذي لمؤسسة «ايلانيس»..  
ويضحك قائلاً: دائماً نفس المشكلة.. التمويل.. إننا نتعثر لقلة الإمكانيات.

- إنكم لا تتتمون إذاً إلى الجامعة؟

- من حسن الحظ.. نحن بذلك نضمن الاستمرار ولكن لدينا أعمال كثيرة  
مثل تنظيم الاستفتاءات وعمل دراسات مشتركة مع دول أخرى ذات ثقافات  
مختلفة.. إننا نعتمد حالياً على دراسات الباحثين «أوزيس» و«هارلدسون» التي  
توصلا خلالها إلى معلومات هامة من مستشفيات نيودلهي والتي تعطينا رؤى  
متعددة للأشياء.

يستوقفني رينج أمام ماكينة القهوة قائلاً: «انتظرنى. لن أغيب طويلاً».

إنها دوامة حقاً! هذا الرجل يعمل بسرعة ٢٠٠ كيلو متر فى الساعة! إنه  
يعيش كل لحظة من لحظات عمره.. لا يضع وقتاً.. بعد ربع ساعة كنا نأكل  
الهامبورجر فى حديقة الحرم الجامعى بجوار بحيرة البط.

لم أستطع أبداً أن أنسى ذلك اليوم.. كل شيء متعلق بتحقيق الجرعة الزائدة  
انقلب رأساً على عقب.. اكتشفت أننا فى أوروبا بعيدون تماماً عن بعض  
الإنجازات الضخمة فى أمريكا.. إن العلماء الأمريكين يعلمون الكثير عما  
يحدث داخل رأس المحتضر فى لحظاته الأخيرة.. لديهم آلاف المعلومات المسجلة  
والمقهرسة والتي تم تحليلها.. ليس فى مجال كيمياء المخ لأنهم غير مهتمين  
بالمعلومات الكيميائية، ولكن من خلال القصص والروايات الإنسانية التى خاض  
أصحابها تجربة الاقتراب من الموت.

مع بداية السبعينات بدأت تجربة الاقتراب من الموت (ان. دى. اى) تشغل  
أذهان العلماء، إنها مرحلة مر بها عدد من البشر اقتربوا فيها من حافة الموت،  
وعاشوا خلالها تجربة عميقة وفريدة أحدثت تغيراً جذرياً فى حياتهم وأفكارهم،  
لكن الدراسة الفعلية لهذه التجربة من جانب العلماء لازالت فى مرحلة البداية.

سألت في استياء: لماذا لم تنتبه في أوروبا لهذه الظاهرة منذ فترة طويلة رغم أنها تتكرر بمعدلات ضخمة؟!

يرد رينج على تساؤلي وهو يقضم قطعة من الساندوتش: هناك سيبان على الأقل.. أولاً: أنه شيء خارق للعادة، وثانياً أن بعض الأشخاص الذين يمرون بهذه التجربة يخشون أن يعتبرهم الآخرون مجانين.. تخيل صديقة تحكى لك بعد إصابتها في حادث مروع راحت بعده في غيبوبة طويلة.. إنها بعد عودة الوعي إليها تذكر تجربة عظيمة شعرت خلالها بمتعة لا مثيل لها في الحياة، وأحست بعدها بأنها تحب الناس جميعاً، كيف سيكون رد فعلك ؟

- سأعتقد أنها تبالغ قليلاً

- وإذا أصرت على روايتها؟

- سأقول إنها كانت في حالة هذيان.

- وإذا حدث بالفعل تغير مفاجيء في حياتها بمعنى أنها أصبحت أكثر تفتحاً وسعادة وأقل عصبية.

- ماذا تريدني أن أقول؟.. سأصاب بالذهول!

- عد إلى رشك ولا تقلق.. حتى الآن لا زال رد فعل المحيطين بأصحاب تجربة الاقتراب من الموت سلبياً في ٩٩٪ من الحالات.. الأطباء يطمنون «شعشع بتحسن بعد هذه الحقنة».. والأهل يؤكدون «هيا.. اهدأ يا عزيزي.. لقد مررت بوقت عصيب، والآن انتهى كل شيء ويجب نسيان هذه الفترة».

في بعض الحالات يكون رد فعل المريض عنيقاً إزاء تصرفات من حوله فهو يؤكد أن التجربة لم تكن عصبية أو مزعجة بل ممتعة.. هنا يسيطر القلق على الجميع.. كيف يشعر المريض بالسعادة وهو في حالة غيبوبة.. إنه مسكين لا يستطيع أن يستوعب ما حدث له.. عندئذ يفضل المريض الصمت حتى

لايتهم بالجنون. اليوم فقط انطلقت الألسنة بعد أن أبدينا استعدادنا للإلتصاف، والاهتمام بما يقال فى هذا الشأن.

يكمل رينج حديثه ونحن جالسون فى المقهى.. تبرق عيناه خلف النظارة السميقة وهو يقول:

- السبب الثانى فى الظهور المفاجئ لتجربة الاقتراب من الموت فى ساحة العلوم الإنسانية هو التطور المذهل فى وسائل الإنعاش، فخلال العشرين سنة الماضية ارتفعت نسبة الناجين من الموت بصورة ضخمة عن ذى قبل.

- ماذا تقصد بالناجين من الموت ؟

- إنهم المرضى الذين استطاعوا النجاة من الموت الطبى المؤقت نتيجة لتطور أساليب الإنعاش وإمكانات العناية المركزة.. هؤلاء لا يخبروننا بشيء ولكننا اكتشفنا نسبة ثابتة منهم تتراوح بين ٤٠ و ٥٠٪ مرت بتجربة «ان. دى. اى».. هذه النسبة لازالت محل بحث، فنحن لازلنا فى البداية.

- من ٤٠ إلى ٥٠٪ .. معنى هذا أن واحداً بين كل اثنين من الناجين من الموت عاش تجربة «ان. دى. اى» !

يادر رينج بتصحيح معلوماتى:

- هذه نسبة ثابتة فى عينة الاستفتاء التى قامت عليها أبحاثنا وهناك احتمال الخطأ رغم كل الاحتياطات. ثم إن لهذه التجربة العميقة خمس مراحل لا يمر بجمعها معظم الناجين من الموت.. هناك ١٠٪ فقط بلغوا المرحلة الخامسة بمعدل واحد فقط بين كل خمسة أشخاص.

- وما هى المرحلة الخامسة ؟

ابتسم رينج فى هدوء.. إننى الصحفى رقم ١٥٠ الذى يوجه إليه هذا السؤال.. وقال:

- تعالى معى.. سأريك من المستندات مايكفى لإشباع فضولك.

وصعدنا لمكاتب مؤسسة «اينانس» حيث توجد مجموعة من الطلبة يقومون بترتيب الملفات.

- «إنهم بعض باحثينا» قال رينج مشيراً إليهم ثم أخذ يعث داخل صندوق من الكرتون حتى أخرج مجلداً ضخماً.

- خذ.. إنه لك.. وسأصعد لأبحث لك عن أوراق أخرى.

إنه كتاب ضخيم بعنوان «الحياة لحظة الموت» من تأليف ك. رينج. تصفحت الكتاب.. عجباً إنه مليء بالرسوم البيانية والجداول ووقعت عيناي على إحدى الفقرات:

هل الطريقة التي نقترب بها من الموت تعد ذات أهمية؟

إن من الدوافع الرئيسية وراء هذا البحث معرفة مدى استقلال التجربة ذاتها عن الظروف التي دفعت بالمرضى إلى حافة الموت..

عاد رينج حاملاً عدداً من الكتيبات ودفع بهم إلى قائل:

- هذه بعض نماذج من مجلة (فيتال ساينز).

- وهذا هو العدد الثاني من مجلتنا «أنا بيوريس». المخصصة للباحثين.. هذه الكتيبات هي وسيلتنا لشرح وتبسيط التجربة.

أعطاني رينج عدة نسخ ومقتطفات من جرائد ثم ودعني وهو يعتذر لتأخره عن محاضراته وذهب يقفز السلم كل ثلاث درجات معاً.

عدت إلى الفندق وبدأت أقرأ بنهم الأوراق التي حصلت عليها.. هذه النسخ المصورة كانت مثل طبق من المشهيات مليء بالمعلومات المتنوعة.. لاحظت أن عشرات من الباحثين - علماء نفسيون وأطباء وجراحون من مختلف التخصصات وبعض علماء الأحياء والفلسفة - يشتركون في تحليل ظاهرة «ان. دي. اى».

هؤلاء الباحثون مازالوا فى مرحلة جمع المعلومات لأن كثيراً من الأسئلة تقف حائلاً أمام الوصول إلى نتائج محددة:

ماذا تعنى هذه الرؤى ؟ ولماذا تظهر فجأة فى الوعى وبشكل جماعى ؟... فى هذه الدوامة من المعلومات شعرت أننى محظوظ للقاءى بالبروفسير رينج.. إنه أحد المنسقين الأساسيين لهذه الأبحاث.. لا يتوقف عن السفر واللقاء المحاضرات.. تارة لطلبة الطب فى شيكاغو، وتارة أخرى فى مدرسة التمريض بنيوهافن، إن المرضات يلعبن دوراً هاماً فى هذا المجال اكتشفته فيما بعد عند ذهابى لقضاء ثلاثة أيام فى «نيراسكا» حيث أخبر رينج بوجود حالة «إن. دى. اى» جديدة وغريبة.

باللعمرب! إنهم يتعاملون مع حالات «إن. دى. اى» كما لو كانت مخلوقات قادمة من الفضاء وكان كين رينج يلعب دور تريفو فى فيلم ستيفن سبيلبرج «لقاء مع الجنس الثالث».

انتابتنى نوبة من الضحك فى غرفتى بالفندق وأنا أتذكر أحداث هذا الفيلم.. آلاف الأشخاص فى جميع بقاع الأرض يحلمون نفس الحلم.. حلم عجيب لا يخلو من عنصرين أساسيين: لحن موسيقى من خمس نغمات ورؤية جبل مسطح على شكل هضبة مكسيكية! وحاول هؤلاء الأشخاص كل بطريقته الخاصة وصف هذا الجبل إما بالرسم أو النحت، أو تشكيل قالب مماثل له. اجتاحت هذه الظاهرة المجتمع العلمى الذى بدأ محاصراً بضرورة دراستها بناءً على طلب السلطات العامة، وتكونت بعثة عالمية على رأسها عالم فرنسى (جسد دوره الممثل تريفو) ظلت تنتقل فى أنحاء الأرض بحثاً عن هؤلاء الحالمين حتى اكتشفت سر الجبل الشهير.. إنه حلم تم توصيله وبث أفكاره لأهل الأرض عن طريق الكائنات القادمة من الفضاء.

كان الجبل مكان اللقاء واللحن هو كلمة السر، وفى نهاية الفيلم التقى الحالمون بهذه الكائنات الفضائية العظيمة والطيبة.

قلت لنفسى إن رينج يشبه العالم الذى جسّد دوره الممثل تريفو، أما الحلم فهو الرؤية المتشابهة عند الاقتراب من حافة الموت.. لكن ما هى الرسالة المراد توصيلها لهؤلاء الناجين من الموت؟ ومن الذى يرسلها؟ هل هم البشر أنفسهم؟!؟

شدتنى القراءة حتى وقت متأخر من الليل.. هناك حوالى ١٠٪ من جميع الأبحاث تشير إلى نفس النتائج.. حوالى نصف الأشخاص الذين تم سؤالهم بعد واقعة الموت الطبي، أكدوا أنهم (خرجوا من أجسادهم) فى اللحظة الحاسمة.

استغرقت بعد ذلك فى قراءة كتاب رينج «الحياة لحظة الموت» لأتعرّف على المراحل الخمس التى تحدث عنها فى هذه التجربة. هناك حوالى ٥٠٪ على الأقل من الناجين الذين سُئلوا مروا بالمرحلة الأولى، وشعروا بأنهم يسبحون فى فضاء غريب.. فى حالة انعدام وزن يليه إحساس رائع بالهدوء والراحة لا مثيل له فى الحياة العادية.. إنهم يؤكّدون جمال ومتعة هذه التجربة التى سيذكرونها دوماً حتى لو مرت عليها عشرون سنة.

إنه أمر غريب أن يشعر هؤلاء أن أفضل لحظات حياتهم هى التى اقتربوا فيها من حافة الموت. اعترف أن الشك ملاً قلبى حتى أننى كنت أتوقف عن القراءة كل خمسة دقائق وأفرك عيني لأتأكد من أننى يقظ تماماً ولست بحالم. إننى فعلاً فى الولايات المتحدة فى مهمة صحفية ممسكاً بكتاب علمى.

يصل ٣٧٪ من أصحاب التجربة إلى المرحلة الثانية التى يرون خلالها أجسادهم على بعد عدة أمتار منهم، ويشعرون بغربة وضعهم.. إنهم بلاشك قد غادروا عالم الأحياء.. لكن ذلك لا يمنعهم من تأمل فريق الأطباء والمرضى الملتفتين حول الجثمان يحاولون إعادة الحياة إليه، ويسرد بالفعل الذين خاضوا هذه المرحلة كل ما حدث لهم أثناء موتهم الظاهرى.

ويؤكد ٢٣٪ منهم أنهم بلغوا المرحلة الثالثة أو مرحلة «النفق».. حيث جذبهم فراغ هائل «يزيد ظلامه تدريجياً» وضاعف ذلك من إحساسهم بالراحة والسعادة بدرجة كبيرة.

و اجتاز ١٦٪ فقط المرحلة الرابعة التي اتسمت برؤية طاقة كبرى من النور بيضاء ذهبية شديدة الابهار والرقّة في آن واحد.. إنه نور يستحيل وصفه يخرج منه إشعاع حُب!

في النهاية يخترق ١٠٪ فقط من الناجين من الموت هذا النور ليلغوا المرحلة الخامسة.. هنا تتعدد الروايات.. البعض يتحدث عن «موسيقى سماوية» والبعض الآخر يصف مُدناً من النور أو الكريستال وآخرون يذكرون أنهم شعروا بلذّة غامرة وهم يذوبون في نور هائل.

هناك دائما عنصران ثابتان في هذه الروايات.. طاقة الحب الشامل أو اللانهائي، والشعور بأنهم أثناء هذه المرحلة قد وجدوا إجابات لجميع أسئلتهم، فلم يكن ذهنهم أبداً بمثل هذا الصفاء أو القدرة على التركيز.

لم أستطع النوم وبدأت بعض الخيالات تتراءى لي، فأخذت حماماً دافئاً ثم نزلت لأحتسى فنجاناً من القهوة في كافيتريا الفندق حاملاً معي كتاب رينج لأستكمل قراءته في جو أكثر حيوية.. ورغم الأصوات والأضواء من حولى إلا أنني ظللت تحت رحمة الكتاب طوال الليل.

في الصباح التالي، ذهبت وأنا شبه نائم للقاء رينج في الجامعة حيث كان يتحدث مع بعض طلابه، كان لدى ثلاثة آلاف وخمسمائة سؤال على الأقل أريد طرحهم عليه، وكان أكثرهم إلحاحاً هو أين أستطيع مقابلة بعض أصحاب الرؤى الغريبة؟

قال رينج : إنهم متواجدون في كل مكان! ونحن لا نحتكر تحليل هذه الظاهرة .. إن رغبة «إياندس» الوحيدة هي أن يهتم المجتمع العلمي الدولي بتلك الظاهرة.. فليمارس كل عالم أبحاثه ثم نتبادل المعلومات ونقارن النظريات. علمت من إحدى الطالبات أن جون أوديت أحد مؤسسي هذه الجمعية، يطوف حالياً أوروبا لبحث سبل التعاون مع بعض الدول.. وقد وجد بالفعل بعض الباحثين في إسكندنافيا وإنجلترا وألمانيا (دول ذات غالبية من

البروتستانت). إنه عالم اجتماع ماركسي، وسيمر حتماً بباريس قبل عودته من أوروبا.

لقد بدا لي كل شيء منظماً فجأة.. ولكن سؤالاً هاماً كان يلح عليّ دائماً ولم أجدُ بُدّاً من توجيهه لرينج:

- ألم تفكر أبداً بأن أبحاثك هذه قد تدفع بعض الأشخاص إلى الانتحار؟

- إنك تمزح ولا شك.. أن جميع من اقتربوا من حافة الموت عادوا أكثر حباً للحياة وإقبالاً عليها.. إنهم يتقلون لمن حولهم الإحساس بأن الحياة فرصة ذهبية لا بد من استغلالها على أحسن وجه، وأن محاولات الانتحار قد تُضيع هذه الفرصة الفريدة. إنك مخطئٌ بلاشك.. فحديث الناجين من الموت عن طاقة الحب الهائلة هي رسالة شعورية لا تتم عن جانب مَرَضِي.. إنني أعتقد أن هذه الظاهرة قد تؤدي - على العكس - إلى تقليل مُعدّلات الانتحار.

إنها رحلة متعددة الإيجابيات، فالعائدون يشعرون بأنهم أقوى وأكثر نشاطاً وحباً للحياة.

- وهل يدوم هذا الشعور للأبد؟

- إنه عادة يستمر ولكن بالطبع لا توجد حالتان متشابهتان تماماً.

سألت رينج عما إذا كان كتابه يحقق مبيعات ضخمة.. رد قائلاً: إنه يأمل في ذلك، ولكنه لا يعلم حتى الآن. وابتسمت في خبث قائلاً:

إن الكتاب سيحقق شهرة واسعة بلاشك طالما أنه يؤكد الخلود وحيية الآخرة.

- إن اهتمام العامة بأبحاثنا تتركز حول الأمل في إثبات الحياة الثانية بعد الموت.. لكن باحثينا لا يضعون ذلك في اعتبارهم أثناء دراسة هذه الظاهرة.

وبدت معالم الغضب على البروفيسور وهو يكمل:

- إننا بالطبع لا نتجاهل، أو ننكر الظواهر التي تؤكد استمرارية الحياة الأخرى، ومن حسن الحظ أن أصحاب تجربة الإقتراب من الموت يُعدون من الشواهد الهامة للحياة الثانية بحيث نتجنب الوقوع في فخ البحث عن إجابات لأسئلة تافهة، هناك أحداث نهتم بها وندرسها.. وبعد ذلك فليستتج كل شخص ما يستطيع. ثم نظر إلى قائلاً في صوت أقل حدة:

- إليزابيث كويلر - روس هي الوحيدة التي استطاعت أن تتخطى هذه المرحلة بأن فصلت الجزء العلمى عن عالم الروحانيات.. لقد خاضت فى فى سبيل ذلك عدة مخاطر ولكن ذلك لا يقلل من شأنها كامرأة عظيمة.

إنه يعرفها تماماً.. وتذكرت تلميحات رونالد سيجل عن هذه المرأة فسألت:  
- وكيف ترى نوعية التجارب التي تقوم بها ؟

يضحك رينج قائلاً:

- نوعية التجارب؟! ولكنها هي التي فتحت أمامنا الطريق على مصراعيه.. لقد سبقتنا جميعاً بمراحل.

اليزابيث كويلر - روس أو «إيكر» هذه المرأة الصغيرة التي جاءت من جبال سويسرا، إن هذا الكتاب سيبدأ مع قصتها.. فكل ماسيق (ومعذرة عزيزى القارى) كان نوعاً من التمهيد.

إن قصة إليزابيث تحمل بين طياتها مفتاح النبع الأسود أو تجربة الموت التي أعيد اكتشافها على أيدي علمائنا المعاصرين.. إنها دليل على ميلاد حضارة جديدة.

## طاقة النور والحب اللانهائي

### مراحل الموت الخمسة !

ولدت إليزابيث في ٨ يوليو ١٩٢٦ بالقرب من زيورخ.. وكانت كبرى ثلاث فتيات توأم رزق بهن الوالدان بعد سبع سنوات من إنجاب ابنهما الوحيد. لعبت ظروف ميلاد إليزابيث دوراً هاماً في حياتها خاصة وأن الأب مستر كوبلر كان يفضل صغرى البنات وكانت الثانية أثيرة لدى والدتها فنشأت الكبرى وحيدة.

في سن الرابعة، أنشأت إليزابيث عيادتها الأولى للحيوانات في غرفة ضيقة بمنزلهم الصغير.. وظلت لسنوات طويلة تمارس وحدها دور الطبيب البيطري في رعاية القطط والأرانب والقنفاذ والعصافير. أما أختها فكانت هوايتهما باللعب بالعرائس.

عندما بلغت إليزابيث الحادية عشرة من عمرها سُئلت في المدرسة عن آمالها في المستقبل.. فقالت: أريد أن أصبح باحثة لأكتشف المناطق المجهولة بالنسبة للإنسان.. أريد أن أدرس طبيعة الحياة وطبيعة الإنسان والحيوان والنبات وأهم من ذلك كله أود أن أصبح طبيبة.. إن دراسة الطب أشبه بحلم مستحيل ولكنه أقصى آمالي.

حلم مستحيل! لقد أفصحت مرة عن هذه الرغبة أمام أهلها فكان رد والدها الرفض التام.. لأن إمكانياته كرجل يعمل في مجال التأمين بزيورخ لا تؤهله لتحمل نفقات تعليم ثلاث فتيات.

كانت الأخت الثانية بين التوائم هي الأكثر ضعفاً وذكاءً في نفس الوقت.. فوقع عليها الاختيار أن تكمل وحدها الدراسة الثانوية على أن تصبح أختها

من ربات البيوت. لم يكن أحد يستطيع أن يناقش قرارات الأب في عائلة كوبر. لذلك لم تتحدث إليزابيث مرة أخرى في هذا الموضوع واكتفت بأحلامها.

ولكن ما كاد الموضوع يأخذ شكلاً جدياً عندما أُخبرها والدها ذات ليلة وكانت قد بلغت السادسة عشرة من عمرها بأن تستعد لتعمل معه كسكرتيرة ابتداءً من الأسبوع التالي حتى أُيقت ضرورة الثبات على موقفها.. وكانت الإجابة القاطعة: لا.

عندما كانت إليزابيث في السادسة عشرة في عام ١٩٤٢ كانت سويسرا في ذلك الوقت أشبه بزورق صغير يتأرجح وسط عاصفة هوجاء. كان النازيون قد نشروا الخراب والدمار في أوروبا بينما استقر السويسريون قريري العين في مصانع الشيكولاته الشهيرة، أما سكان الحدود الذين كانوا على اتصال بالعالم الخارجى فكانت سويسرا بالنسبة لهم نافذة تطل على الجحيم.

كان الراديو هو وسيلة الإعلام الوحيدة والهامة خاصة بالنسبة لمن يجيدون اللغة الألمانية ويستطيعون بالتالى متابعة خطب هتلر. وعندما علمت إليزابيث في أول سبتمبر ١٩٣٩ أن الألمان غزوا بولندا، قطعت على نفسها عهداً بتقديم العون للشعب البولندى قدر استطاعتها.

وقد ارتكبت إليزابيث إثماً عظيماً برفضها عمل السكرتارية مع والدها.. فكان عقابها الطرد بغير رجعة، لذا لم تجد بُدأً من العمل في خدمة بعض القادمين من بحيرة ليمان ممن يتحدثون الفرنسية، ولأنها عانت في ظل هذه العائلة.. فقد كرهت اللغة الفرنسية ولم تحاول إتقانها.

وانتهت القصة الحزينة بفرار إليزابيث من العائلة الشهيرة وعودتها لزيورخ حيث دفعها حب العلم إلى الحصول على عمل كمساعدة في معمل اختبار، ولم تتردد إليزابيث في استخدام الوسائل البسيطة لإشباع رغبتها العلمية حتى لو قضت قرناً طويلاً في تحليل اختبارات البول.

وحصلت بسرعة على ثقة الدكتور «زندر» طبيب العيون الشهير.. فنقلها للعمل معه.. فكانت تستقبل مرضاه وترعاهم ومعظمهم أطفال صغار مهددون بفقدان البصر. واستطاعت إيزابيث فى وقت قصير أن تكسب ثقة المرضى مثلما اكتسبت من قبل ثقة الطبيب الكبير.. كانوا يُسرون إليها بشكواهم وكانت أكثر نضجاً ممن فى سنها فكانت تهتم بما يحدث داخل رأس الطفل الذى يصاب فجأة بالعمى وما يدور فى خلد والديه فاكشفت خلال بضعة شهور - ربما بمحض الصدفة - خمس مراحل مظلمة يمر بها هؤلاء المرضى وعائلاتهم فى الطريق المسدود نحو الإصابة بالعمى.

تبدأ المرحلة الأولى بصدمة شديدة وكأنها عصا حديدية تهوى على الرأس منذرة: إنك ستفقد إحدى عينيك.. ويكون رد الفعل الطبيعى والفورى هو الرفض.

إن هذا الطبيب مجنون ولا بد من استشارة غيره!.. إننى لا أريد أن أفقد عيني!

فى المرحلة الثانية يؤكد الطبيب الثانى تشخيص زميله ويطلب بجراحة سريعة.. هنا تتصاعد نسبة الأدرينالين فى الدم مسببة موجة من الغضب العارم.. ويحاول المريض أو أحد من أهله البحث عن شخص يكون موضع الاتهام.. إنها الجدة أو العمة أو المرضعة، التى كانت ترعى الطفل.. وقد يكون الطبيب الأول الذى أبطأ فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية عين الطفل.. نعم إنه المخطفى!

وترى إيزابيث عائلات كاملة فى حالة ذعر.. وتفشل نظراتها الهادئة ومحاولة مساعدتهم فى التخفيف عنهم بل إن ذلك يستثيرهم بصورة أكبر فى بعض الأحيان.

فى المرحلة الثالثة تبدأ عملية المساومة..! إن إىصار عىن واحدة خىر من العمى الكلى.. سىظل الأخرى سلمىة.. ألىس كذلك یادكتور؟! وسىسىمر المساومة عدة أشهر حتى ىنفذ قضاء الله وىصىب الصغىر أعمى.

عندئذ ىصىب الیأس السمة الغالبة للمرحلة الرابعة.. سىراخى الأعصاب وسىخرس الألسنة.. ولا سىجد إىزایىث ما سىقوله لهؤلاء البائسىن.. لقد دمرهم الیأس سىاماً.

وأخىراً قد سىحدث المعجزة فى المرحلة الخامسة.. معجزة سىقبل الواقع.. إن حالة الصفاء والسكون السى تغلب على فاقد البصر سىضفى نوعاً من الهدوء والاسسىلام للقدىر على من حوله.. قد ىكون الجو المىحىط به حزىناً ولكنة جمىل أشبه بصفاء الجو بعد المطر.. وسىكشف إىزایىث بعد عودة المرىض وأهله للقاء دكتور «زنىدر» بعد شهور طویلة أنها سىعلمت شىئاً خاصاً من حالتهم النفسىة.

وسىشعر إىزایىث رغم حاسة البىحث والاكسىف داخلىها أنها لا سىزال بعىدة عن حلم سىاتها فى أن سىساعد وسىعالج وسىصىب طویبة.. إنها لا زالت حتى عام ١٩٤٥ مجرد مساعده فى معمل بىمسسىفى كبرى فى زورىخ سىح سىرئاسة طیبىب ىهودى بولندى ىدعى (ویسىز). كانت سىسحدث معه عن بولندا وىحكى لها القصىص المأساوىة فأخبرته بالعهد الذى قسىطعه على نفسها لمساعدة الشعب البولندى، وكان دكتور وسىز ىشملها برعاىته لصغر سنها وحماسها الشدىد.

وفى انسىظار الفرصة للوفاء بهذا العهد، كانت إىزایىث سىهم باللاجسىن وسىقضى معظم وقتها فى سىنظىف أجسادهم بالمسطنهرات وسىحاولة إىجاد ملابس وعىذاء لهم.. وكان وسىز ىغمض عىنیه عن سىغىب إىزایىث شبه السىسىمر عن المعمل سىقدىراً لسىسن نواىها.

عندما أنزل الأمريكيون قواتهم فرت جموع هائلة من أرض المعركة وتزايد طوفان اللاجئين إلى سويسرا.. فوجدت إليزابيث نفسها مسئولة عن جناح كامل بالمستشفى.. وتضاعف نشاطها حتى لم تعد تعرف للنوم سبيلاً.

أخيراً هُزم النازيون.. وحن الوقت لتفى إليزابيث بوعدها غير أنه لا توجد وسيلة لبلوغ بولندا قبل الخريف. فى تلك الفترة وخلال صيف عام ١٩٤٥ كانت المجالات الكبرى هى الوسيلة الوحيدة للتعرف على ويلات الحرب فى أوروبا من خلال صور بشعة للدمار والخراب وزحام الجثث ومعسكرات الاعتقال.

هنا تمتد جذور الكتاب الحديث عن الموت.. فى ذلك المكان الذى يتسمى إلى العصور المظلمة.

ولكن كيف الوصول إلى بولندا؟ إن والد إليزابيث هو الذى وضعها على أول الطريق رغماً عنه، إنه يعشق الجبال والتزحلق على الجليد وهى الوحيدة فى عائلته الصغيرة التى تقاسمه هذه الهواية. لقد جمعتهما هذه الهواية ثنية فتصالحا، وفى أواخر أيام صيف ١٩٤٥ طلب مستر كوبلر من ابته إليزابيث أن تساعد بعض عملائه من أعضاء منظمة «الخدمة التطوعية العالمية للسلام» التى تكونت عقب الحرب العالمية الأولى فى أوروبا وأمريكا.. إنها ترفع شعار (أطباء بلا حدود) وتضم أيضاً البنائين والخبازين وبسطاء الحرفيين، وقد زادت فاعلية وتأثير هذه المنظمة بعد مشاركتها فى إعادة تعمير أوروبا بعد انتهاء الحرب.

تحدث عملاء مستر كوبلر من أعضاء المنظمة معه عن خطط أعمالهم القادمة فى «إيكورسى» بفرنسا على الجانب الآخر من الحدود السويسرية.. إنهم يريدون تعمير هذه المدينة التى دُمرت وسُلبت على أيدي النازيين. وقد طلبت إليزابيث أن تتبع دعاة السلام فى رحلتهم إلى فرنسا فقبلوا أن تعمل معهم كطاهية.

هناك انتابت إليزابيث حالة من الذعر عندما علمت باستغلال الأسرى الألمان في إزالة الألغام التي زرعها الجيش الألماني في المدينة.. فأثارت نائرة الأسرى الأجانب الذين سرعان ما استجابوا لتحريضها ضد سكان «إيكورسى» وساعدتهم إليزابيث بكافة الوسائل لأنها اكتشفت أن العدالة سرعان ما تهجر معسكر المنتصرين حينما يتأكدون من نصرهم.

انتقلت إليزابيث بعد ذلك إلى بلجيكا حيث التقت بشاب أمريكي بروتستانتى كان في طريقه إلى بولندا للالتحاق بمعسكر اللاجئين في «لوسيمبا» ودخلها شعور مؤكد أن هذا الفتى يستطيع مساعدتها وقد وعداها بذلك فور وصوله إلى وارسو ولكن كيف يصبحان على اتصال عبر أوروبا التي لحقها الدمار. وفجأة اختفى الشاب !

مرة الأيام ثقيلة حتى عرضت عليها منظمة «الخدمة التطوعية العالمية للسلام» العمل كمتربة لبعض المتطوعين الألمان في سويسرا.. وقد انزعجت إليزابيث من هذا العرض لأنها تريد مساعدة البولنديين وليس العمل كمرشدة للألمان.. هؤلاء التكبرين.. هل استعادوا توازنهم بهذه السرعة لتعمير أوروبا؟

وتركت الأمر لإحساسها الفطرى.. فسافرت إلى سويسرا.. وتأثرت أثناء عبورها لألمانيا الشرقية بروية الدمار والجوع يسيطر على تلك الدولة، ولكنها صدمت لوجود النقيض في سويسرا التي كانت تنعم بالرخاء والرفاهية.. حتى إن المعسكر الترفيهى لمنظمة السلام كان زاخراً بمختلف أنواع الأطعمة.

فى ربيع عام ١٩٤٦، جاءها تليفون من وارسو.. لقد نفذ الأمريكى وعده وطالبها بأن تحضر فوراً إلى بولندا حيث ينقص كل شىء.. فهم يحتاجون لمزيد من المتطوعين، وسافرت إليزابيث بالباخرة إلى «جادنسك» على نفقة المنظمة حاملة معها بطانية، وبعض الحقن والأدوية المضادة للجراثيم.

كانت إليزابيث الفتاة الأولى التى تغامر بالسفر من جادنسك إلى وارسو جائزة فوق إحدى القطارات.

كان وصولها لوارسو بمثابة رمز لتحقيق حلمها القديم.. استقبلها اثنان من الأمريكيين وصحبها في سيارة جيب وسط مشاهد بشعة للدمار والخراب، إلى قرية «لوسياما» بالقرب من «دبلن» على بعد خطوتين من الحدود الروسية، هنا شعرت إليزابيث بشيء غريب يغلف المكان.. شيء مجنون لا يمكن وصفه، إنها لا تعرف بعد حجم التجربة الضخمة التي تقبل عليها.. فقد بلغت المنطقة المرحلة الخامسة منذ زمن طويل !

كانت اللدبابات قد دمرت القرية تماماً ولا يوجد طبيب واحد في نطاق عدة كيلومترات.. حشود اللاجئين تتوافد من كل مكان، والناجون من معسكرات الاعتقال في حالة يرثى لها.. ووباء التيفود يتشر بين أهل القرية الذين يعانون من الهزال والجوع.

في معسكر المنظمة كانت إليزابيث تمارس دورها كطاهية.. إنها مهمة مستحيلة.. فهي لا تستطيع توفير ما يكفي من طعام لقرى المتطوعين الأمريكيين والسويسريين والسويديين الذين اعتادوا أن يأكلوا بشراسة !

حدث أن قدمت إلى القرية فتانان بولنديتان تدرسان الطب وأرادتا الاستعانة بممرضة وعندما علمتا بوجود الفتاة السويسرية لدى الأمريكيين، وأنها عملت ثلاث سنوات في أحد المستشفيات، وقع الاختيار عليها وقبلت إليزابيث العرض وسرعان ما تعلمت استخدام المشروط.

لم يكن لدى الطبيبتين أى أدوية أو حقن غير تلك التي أحضرتها إليزابيث معها من سويسرا فلجأتا إلى التداوى بالأعشاب.. كان المرضى يموتون هنا وهناك بصورة صدمت الفتاة السويسرية.

وتعود الذاكرة بإليزابيث إلى الوراثة.. لقد نشأت في مجتمع تقليدي، في القرية حيث كان الناس يموتون ببطء دون أن يستطيع أحد علاجهم.. ففى السادسة من عمرها سقط أحد الفلاحين من جيرانهم من فوق شجرة وكسر ظهره وظل الرجل يحتضر لمدة يومين.

إن مشاهد الموت ترعبها.. ورؤية البولنديين الذين ينتظرون الموت تصيبها بالذهول رغم محاولتها هي وزميلاتها إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وفي خضم النماذج التي رأتها، طرحت بعض الحالات ثلاثة أسئلة هامة في ذهن إليزابيث.

الحالة الأولى تدعى ريتا.. فتاة بولندية شقراء في العشرين من عمرها تعاني من سرطان الدم.. إنها تتمتع بشفاية غريبة وجمال هادئ رغم علمها بقرب نهايتها.. تموت بشجاعة.. مثل الفلاحين في جبال الألب.

ينطلق وجهها بالبهجة رغم معاناتها.. ويتبادر إلى ذهن إليزابيث سؤال هام: ترى ما هو المفهوم الحقيقي للبهجة؟

الحالة الثانية تدعى مدام إكس.. في إحدى ليالي صيف عام ١٩٤٦ سمعت إليزابيث أثناء نومها بكاء طفل صغير.. عندما قامت لاستطلاع الأمر وجدت امرأة تفتش الأرض وتحمل طفلاً في أحضانها..

وبلغتها البولندية البسيطة أمكنها سؤال المرأة عن حاجتها فأخبرتها أنها قدمت سيراً على الأقدام من قرية تبعد أربعين كيلومتراً لأن طفلها ذا الأعوام الثلاثة يعاني من مرض التيفود الذي سبق أن أودى بحياة أطفالها السابقين وعدددهم اثنا عشر طفلاً ماتوا جميعاً في معسكر الاعتقال في «مايدانك».

قامت إليزابيث وقد اقمشع بدننها تحاول أن تهلى من روع المرأة، وتفهمها أنها لا تستطيع عمل شيء من أجلها، لقد مات عشرات الأطفال بالتيفود في القرية لأن المستشفى الميداني الذي يضمها هي وزميلاتها لا يملك جرماً واحداً من العقار اللازم. يا للمأساة! إن طفلها الثالث عشر والأخير سيكون مصيره الموت أيضاً.

ظلت المرأة جالسة بجوار النار تردد دون ملل أو كلل: «من فضلك يا دكتور.. انقلني طفلي». في الصباح ارتدت إليزابيث معطفها وصحبت المرأة سيراً على الأقدام لمسافة ثلاثين كيلومتراً حتى بلغت مستشفى مدينة «دبلن». كان المستشفى مزدحماً.. لكن إليزابيث جذبت الطبيب الشاب من ذراعه بعد

أن حاول طردهما ونبهته إلى أن طريقة البرود وعدم الاهتمام التي يتعامل بها الأطباء البولنديون مع المرضى ستعطي انطباعاً سيئاً عنهم و... قاطعها الطبيب فجأة وأخذ منها الطفل على أن تتركه تماماً وألا تعود قبل ثلاثة أسابيع!

فى تلك اللحظة، شعرت المرأتان أن الطفل سيموت لا محالة ولكن لا مفر من الإذعان لتعليمات الطبيب.

عادت المرأتان إلى المعسكر.. وأصبحت مدام «إكس» مساعدة لإليزابيث.. تحاول أن تبذل كل ما فى وسعها دون أن تنطق بحرف.. وفى الليلة الحادية والعشرين اختفت الأم دون سابق إنذار واعتقدت الفتاة السويسرية أنها اختفت من حياتها للأبد.. ولكن ذات صباح وجدت إليزابيث مع ملابسها لقافة صغيرة.. إنه منديل ملىء بالرمال ومعه ورقة صغيرة كُتِبَ عليها «حفنة تراب من أرض بولندا المباركة» من مدام «إكس» التى أنقذت آخر أطفالها الثلاثة عشر.

أثارت مدام «إكس» سؤالاً ثانياً شغل ذهن إليزابيث: ما هو الأمل ؟

كانت المرأة الثالثة تدعى جولدا. لقد مر أحد عشر شهراً منذ قدوم إليزابيث إلى بولندا وبدأ شىء ما يؤرقها ويدفعها للعودة.. ولكنها كانت تريد أن تشهد مسرح الدمار الحقيقى فى بولندا قبل الرحيل، فذهبت إلى معتقل «مايدانك» بسيارة جيب وهناك وجدت أفواجاً من الناس جاءت مثلها لرؤية هذا المكان.. نوافذ متهاككة.. أسلاك شائكة.. رائحة نفاذة توحى باحتراق شىء ما.. ويعيدا تظهر الأحزان.. داخل تلك الأكواخ الحقيرة المصنوعة من الخشب.

دفع الفضول إليزابيث لدخول أحد هذه الأكواخ.. يا للعجب! إن الجدران غطتها رسومات الأطفال.. أشكال فراشات.. هذه الرسومات توحى لها بشىء.. إن الفراشة ستكون رمزاً لها. عندئذ شعرت بأن أحداً يراقبها فعادت أدراجها، وعند باب الكوخ، رأت امرأة شابة شديدة النحافة جذبتها نظراتها الصامتة.. إنها تدعى جولدا من عائلة يهودية هلكت جميعها فى هذا المعسكر.. ونجت

هى وحدها بمعجزة، نظراتها الصامته تشع هدوءاً أبدياً.. تذكر إليزابيث بالأشخاص الذين بلغوا المرحلة الخامسة.. هل تحمل نظراتها استنكاراً للموت؟.. ربما الغضب أو المساومة على حياتها.. وقد يكون اليأس.

لا بد أن الذين نجوا من الموت فى هذا المعسكر قد مروا بجميع المراحل بأدق تفاصيلها وصورها.

جاءت جولدا لزيارة المكان مع بعض الأقارب، وغداً تغادره متجهة إلى ألمانيا.

تعجبت إليزابيث لعزم المرأة اليهودية على محاربة الألم والمرارة وربما الجنون من خلال معالجتها لبعض الجنود الألمان فى أحد مستشفيات «هانوفر»، ماذا يدور فى ذهن هذه السيدة لتصرف بهذا الشكل؟.. ماذا يحدث داخل معتقلات الجحيم هذه ليخرج منها أشخاص من أمثال جولدا، إن هذه المرأة تطرح أمام إليزابيث سؤالاً ثالثاً: ما هى الرحمة؟

وتعددت رحلات إليزابيث حتى بلغت روسيا.. وأخيراً بمساعدة بعض الرهبان البولنديين والطيارين الأمريكين استطاعت الوصول إلى ألمانيا ولكن فى شبه حالة احتضار.. فقد أصيبت بميكروب التيفود.

إنها هنا وحدها فى غابة ألمانية فاقدة الوعي تعاني من الحمى.. وجدها أحد المارة فنقلها إلى المستشفى.. وظلت أسبوعاً كاملاً بين الحياة والموت.

وظنها المرضى الألمان بالمستشفى بولندية.. فكروها وأداروا لها ظهورهم حتى أنهم رفضوا إعطائها الماء لتشرب.. وبعد خروجها أدرکوا خطأهم واعتذروا، أه.. لو علموا أنها سويسرية.. لأصبحت مدللة بينهم، ولكن فزع إليزابيث من معاملتهم فى البداية جعلها تنجو بنفسها فور أن استطاعت الوقوف على قدميها، فقررت العودة إلى زيورخ بين أهلها وقد أصبحت أشبه بهيكل عظمى من شدة النحافة.

قامت إليزابيث بعدة رحلات عبر أوروبا التي لحقها الدمار بعد الحرب العالمية الثانية.. ثم عادت لوظيفتها كمساعدة في معمل الرمد في المستشفى الكبير في زيورخ، وقد شجعها رئيسها الجديد على إنهاء دراستها الثانوية.. وخلال عام واحد استطاعت إليزابيث أن تنهى مقررات ثلاث سنوات، كانت تكافح وحدها.. تعمل صباحاً في المستشفى وتسهو ليلاً تذاكر دروسها في مخزن استأجرته من الباطن من صديقة لها تعمل عازفة موسيقى.. وفي صيف ١٩٤٩ حصلت إليزابيث على شهادتها الثانوية. والتحقّت في العام التالي بكلية الطب.

سبع سنوات من الدراسة المنهكة تفرغت خلالها إليزابيث للطب، وكانت ترفه عن نفسها بإقامة بعض الأمسيات الموسيقية مع صديقتها العازفة في شقتهما المتواضعة.

ومع إليزابيث تصبح الأمور دائماً ذات طبيعة خاصة، فقد حولت شقتها إلى عيادة تلتقى فيها مع طلبة الطب وبعض الطلبة المرضى في جلسات مجانية. كان هناك العديد من الأمريكيين بين طلبة كلية الطب ولكن واحداً فقط لفت نظر إليزابيث، شاب أسمر يهودى ضخّم الجثة ذو عيون سوداء وضعته الصدفة في نفس فريقها في دروس التشريح.. وفي الفريق الثنائي علمها «امانويل روس» - ويطلق عليه زملاء «مانى» - كيفية التشريح.. فتوطدت الصلة بينهما.

## ما هو الموت؟!

اتخذت إليزابيث - بعد أن أصبحت طيبة - الدكتور «ألبيرشويتزر» فى أفريقيا مثلها الأعلى، كانت تشعر بميل غريب نحو الهند بعد ارتباطها بذلك الطفل الهندى الذى جاء إلى مستشفى زيورخ للعلاج من حالة تسمم بعد أن أكل فأر إحدى عينيه.

وقد ظل الصغير الذى بات مذعوراً منذ الحادثة مدة أسبوع كامل خائر القوى بسبب إضرابه عن الطعام.. إنه يتحدر ببطء.. وفكرت إليزابيث أن تأتى ببعض الطلبة الهنود من أصدقائها فى محاولة للتخفيف عنه وإقناعه بتناول الطعام، رحب الهنود بالفكرة وبالفعل استجاب لهم الطفل عندما أحضروا له الأكلة الهندية الشهيرة (الأرز بالكارى).

شفى الطفل وذاعت قصته حتى بلغت مدينة برن السويسرية، وعندما علم الزعيم الهندى نهررو وإبته أنديرا غاندى بالقصة أثناء زيارتهم للمدينة، قاما بدعوة إليزابيث وأصدقائها الطلبة الهنود للقائهم بالسفارة، وقالت أنديرا للفتاة السويسرية «تعالى إلى الهند، فنحن نحتاج لأمثالك».

فكرت إليزابيث فى الأمر، فهى تحلم بالطبيعة والمساحات الواسعة وتتخيل نفسها فى مستشفى للجذام تساعد المرضى التعساء.. وتحدثت مع أمانويل روس، الذى تود أن تكمل معه مشوار حياتها ولكنه رفض بإصرار. «لقد فكرت ملياً.. وأريد العودة لأمريكا.. وإذا أردت العيش معى فسيكون هناك» هكذا فاجأها روس.

مستحيل إنه المكان الوحيد فى العالم الذى لم تتخيل أن تقيم به.. يا للهول! إنها لن تتخلى أبداً عن حلمها فى أن تكون مكتشفة. ستكون الهند إذاً هى المحطة الرئيسية فى حياتها.

ورسحت إليزابيث نفسها ورحب الهنود الذين كانوا يعدون لبرنامج ضخم يهدف إلى تطهير منطقة كاملة تزخر بحالات الحمى في جنوب القارة الهندية، وكانت تعد حقايتها عندما جاءها تلغراف يفيد أن البرنامج قد تأجل لأجل غير مسمى بسبب نقص التمويل، وانقلب الأمر كله في لحظات.

أحست إليزابيث بدوار فور تلقيها النبأ ولكن «مانى» فرح بالخبر وقال لها «ستأتين معى بلا شك إلى نيويورك».

كانت الفكرة تخيفها.. فقد أرادت أن تعيش وسط الطبيعة.. حلمت بمغامرة كبرى تحقق فيها ذاتها.. ولكن الأمر لم يعد بيدها.

فى إحدى الليالى، نصحتها صديقة أمريكية تعمل ممرضة بالمستشفى أن تذهب مع «مانى» إلى نيويورك بدلاً من السعى وراء المجهول.

وذهبا إلى أمريكا على متن باخرة فرنسية فى رحلة شهر العسل، فقد تزوجا قبل مغادرة أوروبا مباشرة وأصبحت كنيستها «إليزابيث روس».

كان مانى وزوجه ثنائيا نشطا شغلها عملها بمستشفى جلينكوف فى «لونج أيلاند» عن أى خلاقات زوجية.. كانا دائما فى حالة طوارئ، واكتشفت إليزابيث الإيقاع السريع جدا لحياة الأمريكيين.. إنهم أشبه بتروس داخل ماكينة.. شىء آخر بدا غريبا وغير مقبول للقروية الأوروبية.. إن جميع النساء العاملات بالمستشفى من تومرجيات وممرضات ودايات يأتين للعمل بكامل زيتهن كأنهن فى نزهة.. الأدهى من ذلك أنهن يتحدثن عن المرضى وخاصة الذين يموتون بالمستشفى بمتهى الاستهتار والاستخفاف.

إنهن يتعاملن كوحوش بلا قلب.. بلا رحمة، ولكن هذا المناخ الغريب الذى صدم إليزابيث فى الخمسينات سرعان ما انتشر فى جميع أنحاء أوروبا فى السنوات التالية.

وتكتشف إليزابيث أثناء عملها بالمستشفى حجم الأكاذيب الغريبة التى تحيط بالمرضى الميؤوس من شفائهم.. إن مظاهرم بالفعل خادعة.. فهم يتمتعون

بجمال وصحة وضخامة وقوة وسعادة وشباب، تجعل فكرة الموت أبعد ما تكون عنهم، كما أن الطبيب دائماً يخفى عن المريض حقيقة حالته الصحية ويجعله يتعلق بأمل واهم بينما يُبلغ عائلته أو أصدقاءه بقرب نهايته، عندئذ تبدأ التمثيلية الروتينية.. أهل المريض يظهرون تفاؤلاً مبالغاً فيه لإخفاء دموعهم التي توشك أن تفضح مكنون صدورهم، ويفاجئ المحتضر بتصرفات متناقضة.. كلمات مليئة بالأمل وحركات وإيماءات تنطق بالقلق، وتكتشف إليزابيث عادة أن المريض يعلم بقرب نهايته ولكن تعلقه بالحياة وإنكار جميع من حوله للحقيقة يدفعانه لخداع نفسه وتصديق التمثيلية غير المحبوبة.

إن الأطباء أنفسهم يشاركون في تلك التمثيلية، إما مضطرين أو مذعورين.. لقد أثبتت الدراسات والاستفتاءات التي تمت في الثمانينات (بعد ربع قرن من هذه الأحداث) أن الأطباء وأعضاء المهن الطبية يخشون الموت أنفسهم أكثر من الأشخاص العاديين.

هذه الأكاذيب حول الموت أعطت إليزابيث انطباعاً صيبانياً عن الأمريكيين.. هي وحدها تسم بالصلابة والشدة بينهم.. فالموت بالنسبة لها يختلف عنه لدى أى طبيب آخر خاصة إذا كان يهدد حياة طفل، لذلك أرادت إليزابيث أن تصبح طبيبة أطفال، ووافق أحد أساتذة طب الأطفال أن تعمل معه شريطة ألا تحمل وتنجب أطفالاً، وبعد أسبوع واحد اكتشفت إليزابيث أنها حامل بالفعل.. فاضطرت لترك الوظيفة.

بحث إليزابيث عن وظيفة أخرى فلم تجد، واضطرت لقبول وظيفة فى مستشفى نفسى بماتنهاتن مقابل ٤٠٠ دولار شهرياً وتلقت فى تلك الفترة عدة صدمات، بداية من الإجهاض حتى إصابة والدها بأزمة صحية تهدد حياته فى سويسرا. وانخفضت معنويات إليزابيث، ولم يخفف عنها سوى اختيار العاملين بمستشفى جليكوف لها ولزوجها كأفضل أطباء المستشفى لذلك العام.. ولكن حتى هذه الفرحة لم تدم طويلاً، فقد رفضت الإدارة أن

تمنحها هذا التقدير الذى تحتفظ به لطلابها الذين يتلقون التدريب فيها.. إنه نوع من التعصب الصارخ!

فى الوقت الذى بدأت فيه إليزابيث تتعلق بالأمريكيين العاديين، بدأ لها الزعماء فى صورة مخيفة. فى نهاية الخمسينات جاء عصر كنىدى.. كانت أمريكا فى قمة مجدها وكان شباب ونشاط الرئيس الجديد ينعكس عليها.. ولكن الأكاذيب أصبحت مثل بقعة الزيت التى سرعان ما تزداد اتساعاً، فالأمريكيون ينكرون جميع العقبات وجميع المشاكل.. إنهم متفائلون دائماً بنسبة ألف فى المائة وكأنهم ملوك هذا العالم.

كان هذا المناخ مثيراً لقلق إليزابيث التى كانت تخشى مثل كثيرين اندلاع حرب عالمية ثالثة فى تلك الفترة. إن المجتمعات الإنسانية تمر أيضاً بنفس المراحل المتعاقبة فى تجربة الاقتراب من الموت.. لذة العيش داخل أكلوبة.. ثم الغضب.. فالمساومة وأخيراً اليأس.

فى أوائل شهر يوليو ١٩٥٩ ، استقلت إليزابيث الأوتوبيس عبر «هارلم» حتى وصلت إلى جزيرة الشيطان (كما تسميها).. قلعة قبيحة التصميم محاطة بمستودعات ضخمة للغاز ومحطات كهربائية.. تبعد خطوتين فقط عن الطريق البرى الذى يربط جزيرة مانهاتن بالمطارات.

أحست إليزابيث لدى دخولها المكان برائحة المعاناة والعنف والوحشية.. لقد تناولت آلاف الكتب هذه المنطقة.. إنها أشبه بسجن كبير، ولكنها الملجأ الوحيد للكثيرين، وكان مستشفى مانهاتن الذى ستعمل به إليزابيث أبشع ما فى المنطقة.

صحبها أحد مديرى المستشفى للتعرف على إمكانياتها.. مكاتب إدارية ومعامل يحاول فيها العاملون فى مجال الكيمياء الحيوية التوصل إلى عقاقير جديدة.. وهناك قسم التمريض وغرف العمليات والأقسام المختلفة المكثفة بعرضى الاضطراب النفسى وفصام الشخصية (الشيذوفرنيا) والاكتئاب

والجنون.. أربعة عناصر مقدسة بغالبية من الزوج وأهالي بورتوريكو يرقدون خائري القوى فى جميع الأركان ساجين فى بولهم.

كانت مهمة إيزابيث هى متابعة حالات السيدات المصابات بالشيزوفرنيا الزمئة، وتسجيل سلوكياتهن بعد أخذ العقاقير.. تجارب مستحدثة تجعل من هذه الحالات الميوس منها حيوانات تجارب.. يا للمساكين! لا يدركن حقيقة ما يحدث.. كان يتم حقنهن بعقاقير منشطة بجرعات ضخمة تسبب لهن خيالات ونوعاً من الهلوسة.. وكانت هذه العقاقير تعطى جزافاً لأى مريضة مغلوبة على أمرها بدون علمها فتقودها للدمار، وتتولى المسكينة من الألم والخوف بعد تعاطى الدواء وقد أصبحت فريسة لكوايس بشعة.

قررت إيزابيث أن تلقى بكتب علم النفس فى القمامة.. ما جدوى هذه المحاولات إن كانت لا تفيد المرضى؟! وقررت أن تبدأ فوراً علاجهم بطريقتها الخاصة، تركتها إدارة المستشفى فى البداية تفعل ما يجلو لها فطلبت من المريضات الاهتمام بمظهرهن الخارجى وارتداء الأحذية وتصفيف شعرهن وغسل الأسنان حتى لا يتم حرمانهن من السجائر والكوكاكولا.. وبدأت المريضات يستجبن لها.. حتى الحالات المتأخرة منهن فهمت ما تريده هذه المرأة الأجنبية.

وبدأت المريضات يتعلقن بها.. كانت بمثابة أم تمد يدها لأطفال صغار يمرون بمحنة.. تقدم لهن الهدايا وتتعامل ببشاشة حتى مع المجانين.

وبدأ نشاط إيزابيث يورق رؤساءها.. إنها لا تستطيع أن تتحكم فى عواطفها وبالتالي لا تصلح لهذه المهنة.. هكذا قالوا وتوقعوا فشلاً سريعاً. ولكن حدث شىء غير متوقع.. فقد حققت إيزابيث نتائج باهرة مع إحدى المريضات بالشيزوفرنيا والتي كثيراً ما كانت تصاب بإغماء مصحوب بتشنج.. إنها فتاة تشكيلية سابقة لم تنفوه بكلمة واحدة منذ عدة سنوات ولن تستطيع ذلك أبداً على حد قول أطباء المستشفى.. إنها حالة معروفة ولا يمكن عمل شىء من أجلها.

طلبت إليزابيث أن تعتنى شخصياً بهذه الحالة.. وشعرت أن المستشفى لم يطردها للآن لأنه لن يجد طبيباً أمريكياً آخر يقبل العمل فى هذا السجن، كانت الخرساء تدعى راشيل.. وجهها خالٍ من التعبير.. تبدو متغلقة على نفسها تماماً.

وخلال ثلاثة أشهر كانت إيكر تتكلم، وكان راشيل تستمع لها ولكنها فى الحقيقة لم تتأثر أبداً بما يقال لها، كادت إيكر أكثر من مرة تعلن بأسها من استكمال المشوار بعد أن بدأ الأمر ينعكس عليها شخصياً.. هاهى تشعر بنفسها على مشارف الجنون وهى تتحدث لشهور مع تمثال من الرخام! ولن يستطيع أحد أن يعرف فى النهاية من المجنون، هى.. أم راشيل؟.

مرت عشرة شهور ولم يحدث أى تغيير، فطلب مدير المستشفى من إليزابيث أن تعيد راشيل إلى عنبر الحالات الميئوس منها. فتولت الطبيبة الشابة أن يمنحوها فرصة أخيرة.. حتى أعياد الكريسماس.

وفى يوم وقفت إليزابيث إلى جانب راشيل ترقبان معاً سقوط الثلج فى فناء المستشفى، وأخذت إليزابيث تحدثها عن روعة تسجيل هذا المنظر بريشتها، كانت تريد أن تحرك داخلها انفعال الفنانة بالمشهد الجميل، ثم استدارت إليها وأمسكت بكتفها وتولت إليها أن تستجمع كل قواها لتقول فقط كلمة «نعم».

وسرت رعشة فجأة فى جسد المرأة السمراء وفقد وجهها ذلك الذهول الصامت، وتحركت شفتاها ببطء ووضع يديها فوق الحجر ونطقت «نعم» بصورة محشرجة.. عندئذ لم تمالك إليزابيث نفسها وانخرطت فى البكاء.

خلال أيام وبمساعدة الاخصائية الاجتماعية وأحد أصدقائها المعالجين، استطاعت إليزابيث أن تحقق نجاحاً مذهلاً مع المرأة المجنونة دون أن تعلن عن ذلك، وعندما جاء الكريسماس دعت إيكر مدير المستشفى لرؤية مرضاها.

فوجيء الطيب النفسى راشيل منحنية فوق قماش تطريز والإبرة فى يديها، ونظرت إليه وبصوت مشوش ولكنه مسموع قالت: «ألا ترى ذلك جميلاً؟»

كان للخبر وقع القنبلة المدوية.. فهو شيء نادر الحدوث، وتخلت إليزابيث عن فكرة الرحيل من المستشفى ونظمت احتفالاً ضخماً بمناسبة الكريسماس قامت فيه بصنع الحلويات بنفسها وتقديم الهدايا لجميع مرضاها.

بعد النجاح المذهل مع راشيل تم وقف معالجة حالات الجنون بالطريقة الوحشية القديمة.. وبدأ الأطباء النفسيون بالمستشفى يجتمعون شهرياً لمناقشة أساليب العلاج النفسى لفرويد وأدلر وسكينر وغيرهم، لم تكن إليزابيث تقتنع بهؤلاء الرواد فقد كانوا بالنسبة لها غير مؤهلين لمهنة العلاج النفسى التى تحتاج لعاطفة القلب أكثر من ذكاء العقل.

صدمت آراء إليزابيث جميع زملائها ولكن نتائج تجاربها الشخصية مع المرضى كانت ترغمهم على الاقتناع بأفكارها.

سيدة زنجية شديدة العدوانية كانت هى الأخرى ضمن مريضات إليزابيث.. تعرضت هذه السيدة للاغتصاب عدة مرات من رؤسائها البيض وتم احتجازها فى المستشفى بعد أن حاولت خنق أحدهم، أدارت إليزابيث حواراً مع تلك المرأة لعدة أسابيع ونجحت بعدها فى تخفيف ذلك العقار الكيمائى الذى يكبح جماحها ويصيبها بحالة من الذهول والفتور المخيف.

ذات يوم دخلت المرأة الزنجية مندفة نحو مكتب إليزابيث بينما كانت تتحدث مع مريضة أخرى فأشارت إليها أن تنتظر.. ولم تتحمل المرأة أن تتجاهلها الطيبة فاندفعت نحوها تحاول أن تخنقها فجاءت ممرضان وأمسكنا بها وقادتاها إلى عتبر التعذيب. هذا المكان لم يُسمح لإليزابيث قط بدخوله ولكنها تعرف جيداً ما يحدث بداخله: الصدمات الكهربائية التى يصاب المرضى بالفزع من مجرد ذكر اسمها.

بعد عدة ساعات، خرجت السيدة الزنجية منهارة تماماً.. نظراتها تائهة تنطق بالرعب، واندفعت إليزابيث نحو المدير النوتجى تهدده بأن تطلع الصحافة الأوروبية والأمريكية على ما يدور داخل هذا المستشفى إن لم تتوقف هذه الممارسات البربرية خلال أسبوع واحد.

وتوقعت إليزابيث أن يتم فصلها ولكنها لم تهتم، ولدهشتها استدعاها مدير المستشفى لمناقشة الأمر معها وأخبرها أنه يفكر بالفعل فى إلغاء العقاب بالصدمة الكهربائية خلال بضعة أشهر.

عندما غادرت الجزيرة عام ١٩٦١ .. كان ٧٥٪ من مريضاتها قد غادروها أيضاً بعد أن أتاحت لهن التعرف ببطء على العالم الخارجى من خلال الخروج فى مجموعات صغيرة لشراء حاجاتهن من المحلات الكبرى.

وهكذا أنقذت ثلاثين امرأة من هذا السجن الرهيب الذى أمضين فيه سنوات طوالاً (فأحدهن مثلاً قضت فيه تسعة عشر عاماً) اعتقدن خلالها أنه مصيرهن الأبدى.

من خلال أحاديثها مع هؤلاء السيدات، تيقنت إليزابيث من أن المرضى النفسيين - مثلهم مثل الأشخاص العائدين من غيبوبة - مهما كانوا خائري القوى إلا أنهم يتأثرون كثيراً بعاطفة من حولهم. إن حسن النية من جانب الطبيب النفسى أو الممرضة لا يكفى لمساعدة المريض على الشفاء إذا كان غير مصحوب بصدر رحب وقدرة على العطاء، إن الحب للأسف كلمة غير موجودة فى قاموس الطبي ولكنها - فى رأى إليزابيث - أهم ما تحتاجه المستشفيات الحديثة. كانت هذه الآراء الغريبة موضع سخرية من زملائها ولكن حيرتهم أمام نتائج تجاربها جعلتهم يؤمنون بها.

كونت إليزابيث حولها فريقاً للعمل وابتدعت نوعاً من العلاج الميدانى - طريقة مستحدثة فى ذلك العصر - تعتمد على إيجاد عائلات ترحب باستقبال

المرضى، فكانت فرق عمل صغيرة متنقلة ووضعت نظاماً عملياً متميزاً يقوم أساساً على الحب والقدرة على العطاء..

واصلت إليزابيث تدريجياً في مستشفى «مونتييور» بولاية نيويورك.. وكانت آراؤها الغريبة تصدم زملاءها ومع ذلك كانوا يستشيرونها بانتظام بعد أن ثبت لهم أن طريقتها في العلاج مؤثرة وفعالة.

ذات يوم سألتها طبيب من زملائها عن «الكوميديا المرضية» التي يظهرها مريض شاب مصاب بالاكتئاب.. فهو يدعى منذ عدة أيام إصابته بالشلل رغم ما يتناوله من عقاقير مضادة للاكتئاب.

ذهبت إليزابيث لرؤية المريض وتحدثت معه لمدة ساعة ونصف ثم قالت لزميلها - إنها ليست تمثيلية كوميدية.. إنه مشلول فعلاً (وذكرت اسم مرض عصبي) وسيموت قريباً.

- ماذا؟ إنك تمزحين ولا شك!؟

- أبداً.. بل أعتقد أنه يشعر بدنو أجله، لهذا لا بد من تفهم حالة الاكتئاب التي يعاني منها كمرحلة طبيعية قبل الاحتضار.. إنه ينتظر الموت!

نظر الطبيب النفسى إلى إليزابيث وعلى وجهه علامات الدهشة. إنها تهذى ولا شك.. ولكن بعد ثلاثة أيام تحققت كلامها ومات المريض الشاب بالمرض الذى قامت بإكر بتشخيصه وبعدها عزف زميلها الطبيب عن استشارتها فى أى حالة.

وأدركت هى أن الأطباء يعتبرون موت مرضاهم فشلاً شخصياً، بل هو عار عليهم.

علمت إليزابيث أن والدها يحضر لإصابته بالتسمم فهرعت إليه ورفضت محاولات أصدقائه لنقله إلى المستشفى وقررت أن ترعاه بنفسها فى منزله.

ظل مستر كوبرلر يحاضر عدة أيام قضى معظمها يتحدث مع إليزابيث في أمور فلسفية، اكتشفت أنه قرأ نوعيات مختلفة من الكتب منذ آخر لقاء بينهما.. فحدثها عن البوذية وعن الديانة الفارسية التي تؤمن بوجود إله للخير وإله للشر...

تعجبت الابنة من احتفاظ ذلك العجوز البروتستانتي المتحفظ بروح الدعابة إلى النهاية حتى أنه رفض حقن المورفين ليظل واعياً لما يحدث حوله قدر الإمكان.

أحست إليزابيث بقلق أمها المتزايد.. فمجرد دخولها الغرفة يضيئ نوعاً من الوجوم رغم أنها لا تقول شيئاً. وأدركت إليزابيث أن قلق أهل المحاضر ومحاولة إخفاء شعورهم تحد من استعداده لمواجهة الموت وتحرمه بصورة غير مباشرة من الاقتراب من المرحلة «الخامسة». لذا فإنه من الضروري أن يتقبل أهل المحاضر رحيله النهائي ويتركونه يذهب في سلام.

بعد وفاة والدها عادت إليزابيث إلى نيويورك ولكنها سئمت وزوجها المدينة الكبيرة.. كانا يتوقان للطبيعة والهدوء فبحثا عن عمل في العديد من المستشفيات في الغرب الأمريكي حتى استقرا في دنفر عاصمة كولورادو.

هنا في دنفر.. حدث تطور كبير في حياة إليزابيث. قبل مغادرة نيويورك مباشرة استرجعت الطبيعة السويسرية حلماً قديماً.. تخيلت نفسها في طبيعة مكسيكية ذات حرارة ملتهبة تتابع بعينيها فتاة هندية شابة تتهاذى فوق جوادها، ثم تمخه بقدميها لينطلق بسرعة فوق جسر صغير ويدخل قرية جميع سكانها من الهنود في جنوب غرب أمريكا.

وما كادت إليزابيث تصل إلى كلورادو حتى وجدت نفسها داخل الطبيعة التي كانت تعلم بها.. القرية الهندية والفتاة الهندية على ظهر الجواد، كان غريباً أن يتحقق حلمها بهذه الصورة الدقيقة فأحست على الفور بنوع من الألفة بينها وبين هنود كولورادو.

في دنفر عملت إليزابيث مساعدة للبروفيسور «سيدني مارجولان» وهو طبيب نفسى تتناول دراساته وأبحاثه العديد من المجالات الطبية، فهو يعنى بالعلاقة بين المرضى والعواطف الانفعالية وكذلك الاضطرابات النفسية العصبية وتأثير الحالة النفسية على الجسد وهو تخصص حديث فى عالم الطب.

كانت اكتشافات مارجولان لا تزال فى مرحلة تجميع المعلومات فهو يخوض مجالاً جديداً يحتاج للقدرة على التخيل والاستنتاج.. فيبحث مثلاً كيف يصبح الشخص الحزين أكثر عرضة للإصابة بالأمراض من الشخص المرح ؟

كان الجهاز العصبى فى الستينات صندوقاً مغلقاً بالنسبة للكثيرين من علماء النفس لا يهتم أحد بمحتواه.. لكن مارجولان سعى مع مجموعة من الباحثين لمعرفة الصلة الدقيقة بين النفس والجسد من خلال إجراء العديد من التجارب.

كان أول عمل تسلمته إليزابيث مع فريق مارجولان هو تنظيف جهاز كشف الكذب الذى علاه الصدأ.. ورغم أنها مهمة مملة إلا أن اطلاعها على الأرشيف الخاص بمارجولان ومتابعة أبحاثه كان يهون عليها الأمر - كان البروفيسور يدرس مجال التنويم المغناطيسى وقبلت إليزابيث أن يتم تنويمها مغناطيسياً ثم تعلمت هذا الأسلوب.

ذات يوم بينما كانت إليزابيث تحت تأثير التنويم المغناطيسى رأت نفسها فى ثوب تلك الفتاة الهندية التى حلمت بها من قبل، تجلس فى قارب وفجأة خرج رجل هندى من قبيلة أخرى من الماء واندفع نحوها يحاول إغراقها، وفجأة توقفت التجربة قبل نهاية الحلم.

فى اليوم التالى، علمت الطبيبة أن أحد الطلبة الذين خضعوا للتنويم المغناطيسى بالأمس فى نفس اللحظة فى غرفة أخرى رأى حلماً معاكساً.. فقد كان هو ذلك الهنذى المعتدى، وانهالت الأسئلة على مارجولان من قبل الطلبة يريدون تفسيراً معقولاً لما حدث ولم يستطع البروفيسور سوى تجنب التعقيب على الحلم الغريب.

خلال بضعة أشهر، توثقت الصداقة بين سيدنى مارجولان وإليزابيث.. وفى عصر أحد الأيام بينما كانت تقوم بتنظيف أحد الأجهزة جاء ليخبرها بأنه سيسافر لمدة أسبوعين إلى الجنوب حيث يذهب بانتظام لنيومكسيكو لمتابعة دراساته عن الهنود.

قال البروفيسور: لدى مشكلة.. وهى موعد المحاضرة التى ألقىها شهريا على طلبة السنة النهائية ولا يمكننى تأجيل هذه الرحلة.. آه! لقد جاءتنى فكرة جيدة.. ستقومين أنت يا إليزابيث بإلقاء المحاضرة بدلاً منى.

وخرج البروفيسور من المكعب دون أن يتنظر الرد، وهرعت إليزابيث خلفه فى قلق لتعرف هل سيرتك لها مارجولان نص المحاضرة أم أنه يريد أن تُعدها وحدها معتمدة على مذكراته الطيبة!؟

قال البروفيسور: إننى لم أعد شيئاً على الإطلاق.. عليك بإيجاد موضوع شيق ولديك أوقاتى، إننى واثق فى إمكانياتك.

كاد أن يغشى عليها.. هل تستطيع أن تحل محله وتحاضر كأستاذ فى موضوع مثير فى مجال علم النفس.. وأمام ثمانين طالباً جاءوا خصيصاً وراء شهرة مارجولان؟

قالت: لا بد أنهم سيهرعون خارج القاعة فور رؤيتى مكانك! هز البروفيسور كتفيه غير عابىء وانصرف.

ظل القلق الشديد يعترض إليزابيث لمدة ثلاثة أيام، ماذا تفعل؟.. إنها تستطيع الآن أن تتحدث بلغة إنجليزية مفهومة رغم لهجتها الغريبة.. ولكن ما هو الموضوع الذى يمكن أن يستحوذ على اهتمام هؤلاء الطلبة ذوى التخصصات المختلفة فى الجراحة وأمراض النساء والرمد والذين يسخرون عادة من غرائب علم النفس. إن السيطرة على مثل هذا الجمع تحتاج إلى شخصية مؤثرة مثل مارجولان.. فهو يتطرق إلى عدة نقاط فى المحاضرة الواحدة ويتنقل من موضوع

إلى آخره باقتدار شديد يجبر حتى الطلبة المشاغبين على السكوت والإنصات إليه باهتمام خلال خمس دقائق على الأكثر من بدء المحاضرة.

فى يوم الأحد وبينما كانت إليزابيث تسقى الورود فى الحديقة بدأت فكرة المحاضرة تتبلور فى رأسها شيئاً فشيئاً.. مثل صورة فوتوغرافية تظهر تدريجياً أثناء التحميض، لا بد من طريقة لتستحوذ بها على مشاعر وفكر هؤلاء الطلبة.. إنها ستحدثهم عن الموت.

ذهبت لزوجها لتخبره بالفكرة ولكنه أغرق فى الضحك قائلاً: «إن الأطباء يهتمون بالحياة لا بالموت.. ولكنك على الأقل ستحققين نجاحاً، فسوف يسقطون من الضحك عندما تحدثينهم عن الموت»..

هزت إليزابيث رأسها غير مقتنعة.. إنه مخطئ، فالموت أمر هام يستحوذ على مشاعر الإنسان.. ولكن الزوج لم يقتنع لأن الموضوع غير علمى.

تعلم إليزابيث جيداً أن الموت يمثل مشكلة ضخمة.. فهم لا يتكلمون عنه إلا من باب السخرية مثلما يدبر الطلبة القدامى بعض المقالب الساخنة للمستجدين بوضع أذن ميتة أو جزء من جثة آدمية فى حقائبهم قد يعرف الأطباء جيداً ما يصيب الجسم البشرى من جروح وأورام وأمراض وكسور.. ولكنهم أبداً لا يهتمون بما يحدث داخل عقله عند مواجهة الموت.

إن مهمتهم الأساسية هى علاج الجسد وليس بذل جهد ضائع فى محاولة اكتشاف مكنون النفس.

فى اليوم التالى ذهبت الطبيبة السويسرية إلى مكتبة كلية الطب للبحث عما كُتب فى هذا الموضوع، وفوجئت بعدم وجود أى مراجع تفيدها على الإطلاق حول الحالة النفسية للشخص المحتضر، وقضت يوماً كاملاً تتصفح جميع المجلات الطبية التى تصدر فى أمريكا.. لا شىء على الإطلاق!.. إن الموضوع يبدو غير هام للطب الحديث الذى يهتم فقط بنوعية الغذاء والعقاقير التى تقدم للمحتضر دون الالتفات لمعاناته النفسية.

فى الموسوعات الطبىة الضخمة عثرت إىزابىث على أكثر من تعريف للموت الطبى؁ هل يموت الإنسان عندما يتوقف التنفس؟.. لا لىس بتلك السرعة.. إذا عندما يتوقف القلب عن النبض.. لا.. كان ذلك اعتقادًا شائعًا.

إن التقدم التكنولوجى الذى أتاح عمل رسم كهربائى للمخ يؤكد أن الشخص يصبح ميتًا من وجهة نظر الطب عندما يتوقف عمل المخ وبالتالى الإشارات الكهربائىة التى يرسلها إلى الجهاز.

ووقعت فى حيرة.. إن الأطباء لا يستطيعون حتى الآن وضع تعريف محدد للموت؁ ماذا يحدث فى تلك اللحظة الحرجة التى تنتهى فيها الحياة؟ إن توقف نشاط الإنسان - بأى صورة من الصور - لا يعطى إجابة قاطعة لهذا السؤال.

إن تلك الثغرة الطبىة تظهر بوضوح عجز علم الأحياء عن وضع تصور شامل للحياة.. إن علماء الأحياء يبحثون منذ زمن بعيد ولكنهم لم يتوصلوا حتى الآن إلى سر هذا اللغز: الموت.

## مختصر وراء الستار

فى معهد التحليل النفسى بشيكاغو، بدأت إليزابيث عملها مع محلل نفسى يتسم بجفاء الطبع فتركت العمل معه بعد أن صارحته بأرائها عن المراحل الخمسة للموت، بعدها علمت بقدوم الدكتور «بوم» من فيينا.. كان العالم اليهودى لطيفاً معها، ووافق أن تعمل تحت إشرافه وهو أمر نادر الحدوث بالمعهد.. فاستطاعت معه أن تنهى دراسة التحليل النفسى خلال عامين.

فى أحد أيام ديسمبر ١٩٦٥ وبعد ثلاثة أشهر من وصول إليزابيث إلى شيكاغو، دخل مكتبها أربعة من الطلبة بينما كانت تعد محاضرة عن الاضطرابات النفسية العصبية ورجوها أن تساعدهم.. فهم يدرسون علم اللاهوت (الديانات) ليصبحوا وعاظاً فى المستقبل ولكن رءوسهم امتلأت بالنظريات دون أن يشاهدوا عن قرب حالة احتضار واحدة.. فكيف لهم أن يمارسوا مهنتهم بعد التخرج!؟

كان الطلبة قد سمعوا عن محاضرة إليزابيث فى دنفر مع ليندا الفتاة المصابة بسرطان الدم.. فجاءوا إليها بعد أن كلّفوا بإعداد بحث عن إحدى الأزمات التى يمر بها الإنسان فى حياته.. ولم يجدوا أصعب من لحظة الاحتضار.. لهذا فكروا فيها وطلبوا منها أن تسمح لهم بمصاحبتها فى المرة التالية التى تزور فيها أحد المختصرين.

بدأ الأمر غريباً بالنسبة لإليزابيث. يا للمفارقة!

يأتى إليها تساوسة المستقبل لتساعدهم على أداء مهنتهم فى مواجهة المختصرين.. هى بالذات التى نشأت على الديانة البروتستانتية ثم رفضتها بعد ذلك.

ف عندما أرادت إليزابيث أن تنال الجنسية الأمريكية وتزوج امانويل روس سئلت عن ديانتها فكبت، لا أدري. إنها تعتبر نفسها واقعية، فهي لم تقتنع أبداً بممارسة الديانة البروتستانتية.

أخذت إليزابيث تفكر كيف تواجه هذا الموقف الحرج.. إنها لن تستطيع إرسالهم للمكتبة للبحث عن شيء يفيدهم، فهي تعلم جيداً بعدم وجود أبحاث علمية أو دراسات حديثة في هذا المجال، لذلك كان عليها إما أن تبادر بالموافقة أو ترفض بصراحة.

حتى الآن لازالت جهود المختصين في علم النفس تتركز على لحظة الميلاد والمراحل الأولى من الحياة متجاهلة تماماً الجانب الآخر (الموت) كما لو أن الإنسان يصبح غير ذي قيمة عندما يقترب من الموت، كل ما هنالك إبداء شيء من الإعجاب البارد والقلق الخفى إزاء صموده في اللحظات الأخيرة.. فالفروض أن المحتضر يجهل حاله ولكن ذلك الافتراض لا يستند إلى حقيقة علمية.. إنها مجرد افتراضات لا يستطيع الأطباء النفسيون أو غيرهم أن يفعلوا شيئاً إزاءها إما عن خوف أو جهل أو بلاذة في الشعور.

ولكن لأنها عاطفية وتعلم من خلال تجاربها في الحياة الكم الهائل من العواطف الإنسانية، التي تزخر بها تلك المنطقة المحرمة في حياة الإنسان (حالة الاحتضار).. فهي ترى تجاهل العلماء المعاصرين لتلك الحالة جريمة لا تغتفر بل وحقارة أيضاً.. إنهم يحاولون فقط إطالة عمر الإنسان لأقصى درجة وبذلك تطول فترة الاحتضار وتتسع مرحلة الكذب والخداع التي يتصور ويتوهم فيها الإنسان أنه أصبح آمناً من الموت.

بدأت إليزابيث فكرة مساعدة دارسي العلوم الدينية سخيقة ولكنها قبلت، ووعدت بأن تخبرهم عندما تسنح لها فرصة لقاء شخص يحتضر.. وبدأت بالفعل تبحث عن هذا الشخص في مستشفى «بلينجز» الواسعة.

بعد بحث طويل دون جدوى سألت زميلاً لها إن كان لديه ضمن مرضاه شخص ميئوس من شفائه يقبل التحدث مع بعض دارسى العلوم الدينية.. ليكلمهم عن رؤيته للحياة وهو موشك على مغادرتها، ضحك الطبيب ساخراً وتركها وانصرف ظناً منه أنها تمزح.

لم تفهم إليزابيث موقفه حتى فوجئت بالرفض للمرة الخامسة فبدأت الأمور تتضح أمامها: «إنك مجنونة».. «ألا تخجلين من نفسك».. «تريدينهم أن يحدثوك عن نهايتهم القرية؟!».. «هل يشير هذا الحديث غرائذك أم ماذا؟!».

ردود غريبة انتهت عليها بسبب طلبها.. بل إن إحدى المرضات تماسكت بصعوبة كى لا تصفعها عندما عرضت فكرة الحديث مع شاب مصاب بالسرطان عمره ٢٣ عاماً وقالت لها: (كيف توقظين جراح هذا المسكين.. أيتها السادية التى تتلذذ بتعذيب الآخرين!).

أخيراً أبدى أحد الجراحين تعاطفاً معها بعد أن أدرك أنها ليست شريرة، ولكنه رجاها أن تتخلى عن هذه الفكرة المجنونة قائلاً «نحن لا نستطيع أن نزرع بمرضانا الميئوس من شفائهم إلى مزيد من اليأس والكآبة، يكفيهم ويكفينا حالتهم الحرجة».

بعد ثلاثة أيام من البحث المضنى، كان لابد لإليزابيث أن تواجه الحقيقة، لقد رفض جميع العاملين بالمستشفى أن يتحدث مع أى محتضر، وكان الرد الجماعى للأطباء «أن أحداً لا يموت لديهم».. وعندما تسأل عن الحالات الميئوس منها يكون الرد: تكفيهم آلامهم ولن نسمح لك بأن تجعلى منهم لعبتك!

كان يمكن أن تتوقف الأمور عند هذا الحد لولا أن جاءت الفرصة أحد أيام الجمعة فى الساعة الحادية عشرة مساءً بعد أن غادر جميع الأطباء المستشفى لتمضية أجازة نهاية الأسبوع.

كان الطبيب الوحيد بالمستشفى فى ذلك الوقت رجلاً فى الستين من عمره، يكرس حياته ووقته لمرضاه وقد جاء ليطمئن على حالتهم فى زيارة أخيرة قبل الذهاب للأجازة.

تحدثت إليزابيث مع الطبيب واستمع إليها باهتمام ودون أن يتفوه بكلمة قادها إلى غرفة أحد مرضاه.. رجل طاعن فى السن منهار تماماً، يتغذى من خلال أنبوبة تخرج من أنفه ولكنه يعى كل شىء حوله، وعندما علم العجوز بنية إليزابيث أشار إليها أن تجلس، كان يريد أن يتحدث إليها.. ولكنها تذكرت الطلاب الأربعة.. ربما لن تسنح فرصة مماثلة قبل وقت طويل. فهمست فى أذن العجوز: (تماسك يا سيدى وسأحضر غداً). وذهبت إليزابيث للاتصال بالطلبة.

فى اليوم التالى، عندما اجتمع الخمسة فى غرفة العجوز كانت قواه قد انهارت فكان أضعف من أن ينطق بكلمة. وشعرت إليزابيث بعرق بارد يسرى فى ظهرها.. وأمسكت بيد العجوز قائلة: «شكراً على أى حال».

وأشارت لهم الممرضة أن يغادروا الغرفة بعد أن أصابهم الإحباط، وما كادت إليزابيث تصل إلى مكتبها حتى دق جرس التليفون.. لقد مات العجوز فى تلك اللحظة! كانت لحظة مريّة بالنسبة لها.. تذكرت كيف رفضت بالأمس الاستماع إلى العجوز باستخفاف فأحست باللوم وتأنيب الضمير، وتركها الطلبة فى هدوء فجلست وحدها فى المكتب الصغير تفكر بأن الوحيد الذى يمكن أن تنفث عن ضيقها معه هو رئيسها المحلل النفسى الذى ينصت إليها دائماً باهتمام.

خلال بضعة أسابيع، أدركت إليزابيث أهمية التحليل النفسى فى اكتشاف تلك المنطقة المحرمة (الاحتضار) فى رحلة الإنسان والتى دفعته الظروف للاقتراب منها.. وساعد على اقتناعها بهذه الفكرة سرعة تلاحق الأحداث، بعد أيام قلائل جاءت الفرصة الثانية.. عجوز آخر يحتضر بين مرضى نفس الطبيب.

هذه المرة.. تم اللقاء، وجلس الطلبة مبهورين ببساطة إليزابيث فى التحوار مع المريض، إنها تحدثة بجرارة واهتمام دون أن يبدو عليها الخوف.. لم تتطرق أبداً لنهايته القريبة ولكنه عندما بادرها بقوله «أعرف أنني لن أعيش طويلاً» لم تحاول أن تنفى أو تتجنب هذا الموضوع بل سأته عما يدور فى رأسه بعد أن علم باقتراب النهاية، وبهت العجوز من الدهشة ورفع كفيه وهمس بجملة لم يستطع الطلبة أن يفهموها فى البداية فأعادتها إليزابيث على مسامعهم جميعاً «إنك لم تر ولدك منذ عامين بعد أن ترك المنزل عقب مشاجرة بينكما واليوم تخشى ألا تراه ثانية.. أليس كذلك؟» وأوما العجوز برأسه دون أن ينطق، فوعدهت بأن تبذل قصارى جهدها لتحضر ابنه الشاب قبل فوات الآوان.

كان المشهد مؤثراً بالنسبة للطلبة.. سيتذكرون طوال حياتهم كيف استطاعت الطبيبة أن تخترق أعماق ذلك المحترض.

خلال بضعة أيام، نجحت إليزابيث فى العثور على الابن المخفى وأقتعته بالحضور لرؤية والده فى المستشفى، ومات الأب بعدها بأيام هادىء النفس قرير العين.

كان العمل الحقيقى لإيكر هو تدريس الطب النفسى.. وكانت تقوم بذلك على طريقتها الخاصة غير التقليدية معتمدة على بعض الأبحاث التى قامت بها نيويورك، أما دراسة الموت فلم تكن ضمن برنامجها الدراسى.

فى إحدى محاضراتها.. تناولت إليزابيث كيفية التفاهم مع المرضى الذين يعانون من مرض عقلى عن قناعة تامة بأنه يمكن التفاهم مع أى شخص حتى لو تحول إلى تمثال من خشب إذا استخدمنا لغة القلب وتعاملنا معه بحب.

فى نفس الوقت وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى استطاع رجل يدعى «دليجنى» أن يدير حواراً طويلاً مع بعض الأطفال الانطوائيين وخرج بنتائج تتشابه نوعاً ما مع ما توصلت إليه إيكر.

باختصار نجحت إليزابيث في دورها كأستاذ مساعد في الطب النفسى، وبعد خمسة سنوات تم اختيارها من قبل الطلبة «كأفضل أستاذ لهذا العام».

كانت طريقتها فى التدريس والتي تأثرت مباشرة بأساتذتها القدامى السويسريين هى نفسها التي اتبعتها فى «دنفير» مع ليندا.. بدعوة المرضى النفسيين لمناقشتهم أمام الطلبة.

فى شيكاغو اتخذت المحاضرات شكلاً آخر.. كانت المحادثه تتم بينها وبين المرضى داخل (حوض الأسماك) كما يطلق عليه الطلبة. وهو عبارة عن حجرة صغيرة بها مرآة غير عاكسة تستخدم كحاجز أو ستار ومع أن المرضى يعلمون بوجود الطلبة خلف ذلك الستار إلا أن ذلك يجعلهم أقل خجلاً وارتباكاً من رؤية هذه الوجوه، وهى تنفرس فيهم وتحلل كلماتهم. هكذا وضع الشكل الأولى لما أطلق عليه فيما بعد (الندوة التحليلية).

فى البداية.. كان المرضى الذين يقع عليهم الاختيار لحضور هذه المحاضرات يعانون من مرض عقلى مثل الفصام (شيزوفرينيا).. حتى كان يوم فوجئت فيه إليزابيث بمجموعة من طلبة الطب والمرضات ودارسى العلوم الدينية يأتون إليها لتساعدهم فى ترتيب لقاءات مع بعض المختصين.

كانت المرضات أكثر إلحاحاً لأنهن يتعاملن بصورة مباشرة مع المختصين، ويضطرون للاحتكاك بهم حتى اللحظات الأخيرة التي يقمن فيها بتنظيف أجسادهم وهى أشبه بجثة هامدة.. غير أن التدريب العملى فى مهنة التمريض لا يهتم للأسف بهذا الجانب الإنسانى الخطير.

سمعت بعض المرضات من شيكاغو بالمحاضرة التي ألقتها إليزابيث فى دنفير وتابعت الكثيرات منهن محاضراتها عن الطب النفسى فاقترحن عليها أن تستبدل المرضى النفسيين فى الندوة التي تنظمها بشخص مختصر ليتكلم عن تجربته من وراء الستار.

فكرت إليزابيث ملياً فى الأمر بعد إصرار الطلبة والمرضات على اقتراحهم.. إنها بالفعل لا تستطيع أن تجمع خمسين شخصاً فى غرفة مريض يحتضر.. فوافقت فى النهاية رغم علمها بأن هذه الخطوة ستثير سخط زملائها.

وتوالى الصدمات فى حياة إليزابيث ومن حولها.

فى عام ١٩٦٦ شعرت الطبيبة بهاجس يلاحقها لعدة ليال مؤكداً لها أن والدتها تحتاج إليها فقررت السفر إلى زيورخ.

عندما وصلت إليزابيث إلى المنزل وجدت أمها فى صحة جيدة، فحدثت نفسها قائلة «هل جنت؟ أم أنها إحدى علامات الإرهاق؟!» ولكن عند اصطحابها للمطار قالت لها أمها قبل الرحيل «أريدك أن تعدينى بشكل جاد أن تساعدنى على الموت فى هدوء إذا ما أصبحت بمرض ذهب بعقلى أو أوقعدنى عن الحركة».

شعرت إليزابيث بالدم يتجمد فى عروقها فعمزت عن الكلام لفترة ثم استجمعت قواها لتقول: «إن ذلك لن يحدث أبداً. إننى أفضل الانتحار على أن أعجل بموتك».

ونظرت مدام كويلر بحدة لابنتها التى أضافت: إننى أعتقد يا أمى أنه ليس من حق أحد أن يتدخل لإنهاء حياة إنسان.. إنها جريمة.

إن الأطباء يلجأون إلى استخدام المسكنات دائماً ليخففوا الآلام الجسمانية للمريض، ولكنها ترفض هذه الأدوية التى تجعل المريض يحتضر بدون وعى، فلا توجد فلسفة يمكن أن تبرر من وجهة نظرها حرمان المريض من هذه المرحلة الهامة فى حياته، كيف نحرم المحتضر من بلوغ المرحلة الخامسة؟! إن أى فيلسوف أو شخص عادى لابد وأن يهتم ببلوغ تلك المرحلة فى لحظاته الأخيرة، إنها خيانة أن يضحى الشخص المحتضر بهذه المرحلة العظيمة ليشرى حياة رخيصة ظاهرها الرحمة.. يتخبط أثناءها فى اللاوعى بسبب الأدوية المسكنة

التي تحرمه من تجربة الاقتراب من الموت بكل ثرائها وتميزها الفريد عن جميع تجارب الحياة.

لم تكد تمر ستة أشهر حتى أصيبت مدام كوبرل بالشلل التام من رأسها حتى قدميها.

وأدركت إليزابيث خلال فترة قصيرة بأن والدتها لن تستطيع أن تنطق بكلمة واحدة بعد الآن. فحاولت أن تجد وسيلة اتصال يمكن من خلالها فهم احتياجات والدتها التي تستطيع فقط أن تفتح وتغمض عينيها، فكانت طرفة واحدة من العين تعنى «لا» بينما تعنى حركتان متالتان كلمة «نعم».

قامت إليزابيث بعمل لوحات تجمع العديد من الصور والكلمات مثل «أشعر بالعطش».. «أريد التبول».. «شيء ما يحك ظهري أو قدمي اليمنى». كانت هذه طريقة مبسطة للتفاهم فالمرضة تشير بإصبعها على اللوحة وتتبع عيني المريضة.. كان الأمر في البداية مملأً وصعباً ولكن مع الحب لا يوجد شيء مستحيل.

مضى شهر.. شهران.. ستة أشهر.. أربع سنوات.. فترة طويلة ظلت خلالها مدام كوبرل تحتضر دون أن يطرأ عليها أى تحسن وأخيراً نامت فى هدوء مثل طفل صغير بعد أن وضعت معتقدات إيكر أمام اختبار صعب جعلها تتجرع المرارة طوال هذه السنوات لرفضها بإصرار أن تعجل بموتها، وتنتهى آلامها بالمسكنات التي تفقدها الوعي، وبدأت إيكر تهدأ بالآ بعد أن أدركت أن المختضر يعود لمرحلة الطفولة التي توقظ بداخله قوة الملاحظة الشديدة والانفعالات القوية.

كانت الصدمة الثانية موجّهة للطلاب المواظبين على حضور محاضراتها والذين تلقوا فى تدريباتهم العملية صدمة اللقاء الأسبوعي بالمختضرين.. فقد وعدتهم إليزابيث بأن تستعين بإحدى هذه الحالات فى ندوتها كلما استطاعت ذلك.

وخلال أسبوع من البحث.. استطاعت إليزابيث أن تعثر على ضالتها فى قسم القلب أيضاً.. سيدة ضخمة فى الخمسين من العمر.. أم لتسعة أطفال فى مختلف الأعمار.. تنتمى إلى طبقة العمال الكادحة حيث البؤس والمعاناة. كان من الواضح أن السيدة لازالت فى المرحلة الأولى.. مرحلة الرفض والاستكار، فهى تظهر بأعصاب متماسكة مؤكدة أنها لن تموت.. إن الرفض هو الدرع المؤقت الذى يحاصر العقل ويمنعه من التفكير فور إعلان الحكم باقتراب النهاية.. إنه يمثل مرحلة أساسية فى التجربة، ولكن المشكلة الوحيدة هى المناخ المحيط بالمدن الكبيرة الحديثة فهو يحاول وقف تسلسل المراحل الخمسة ويمنع تحول فكر الإنسان عن المرحلة الأولى، فالجميع يرفض الموت ويحاول تجاهله ونسيانه بالانغماس فى ملذات الحياة والعيش فى الذكريات الحلوة والعودة لمراحل الطفولة والشباب.

ولكن آجلاً أم عاجلاً تسير الأمور فى مجراها الطبيعى وتتطور الحالة إلى المرحلة الثانية: مرحلة الغضب. كانت هذه السيدة من المرضى المزعجين الذين يرهقون الممرضات بطلباتهم وكانت دائمة الشكوى رغم أنهم يرضخن لجميع طلباتها.

أبدت السيدة هدوءاً غريباً عندما اقترحت عليها إليزابيث أن تعرض شكواها أمام مجموعة من الطلبة والممرضات، ولكنها لم تفهم فقالت لها إليزابيث: إنك ستشرحين لهم ليفهموا ويتعلموا فأرضت بذلك غرورها وأشعرتها بقيمتها حينما وضعتها فى مركز الأستاذية.

فى غرفة المحاضرات ذات الستار توقفت المرأة عن الشكوى وقالت: إنها تعلم بقرب موتها ولا تطيق محاولات النفاق والكذب التى تحيط بها، إنها تفضل أن يتعامل الناس معها بصورة أكثر جدية وأكثر وضوحاً لتشعر بالاسترخاء والهدوء فالإنسان يقضى حياته كلها بحثاً عن راحة البال.

وهكذا تحولت المريضة المشاكسة إلى إنسانة أخرى خلف الستار وأدركت المرضيات - رغم قصص الموت التي يعشن فيها داخل المستشفى - معنى التفاهم مع المحضرين في مجتمع لا يتعامل مع الموت إلا من خلال طريق غير مباشر.

كانت الصدمة أشد وقعاً على طلبة الطب بمستشفى «بلينجز» فقد حذرهم أساتذتهم من الانسياق وراء القصص العاطفية والبعد عن الجانب العملي خاصة في مجال علم النفس وذلك في الوقت الذي كانوا يتابعون فيه باهتمام ندوة إليزابيث التي تحتل العواطف والمشاعر الإنسانية المقام الأول فيها.

اختلفت ردود فعل الطلبة عندما فاجأتهم السيدة أثناء الندوة بقولها: «إنني سأمت». هرب البعض من القاعة وانخرط بعضهم في البكاء وآخرون تأثروا بشدة لدرجة الغضب، وبكت المريضة هي الأخرى.. وعندما غادرت القاعة كانت أشبه بمن يتأرجح بين المرحلتين الرابعة والخامسة، بين الشعور باليأس وبين السكون الشديد والاستسلام للواقع.

كانت ندوة إيكر تمثل أيضاً صدمة لغيرها من الأطباء الذين ذهلوا من قدرتها على مناقشة المرضى حول قرب نهايتهم.. إنها ظاهرة خطيرة حاول كبار الأطباء التصدي لها ولكن الوقت قد فات لعمل شيء.. سواء أرادوا أم لا.. فإن مستشفى بيلينجز ظل لمدة ثلاث سنوات يقدم لإيكر أحد المحضرين من مرضاه لتناقشه في ندوتها الأسبوعية.

وشاع الخبر بسرعة داخل المستشفى وخارجها. وبعد عامين وفي سنة ١٩٦٨ تم إدخال طريقة إليزابيث في مناقشة المحضرين من وراء الستار ضمن البرنامج الدراسي لجامعة شيكاغو.. وذلك بعد أن بدأت الأبحاث العلمية تتناول هذا الأسلوب الجديد في تدريس علم النفس، وكان الطلبة يجدونه أسلوباً ممتعاً للغاية، لأنه يحقق رابطة إنسانية وعاطفية بين المريض والطبيب، وهكذا اشتهرت إليزابيث على مستوى الجامعة.

وفى عام ١٩٦٨ حدثت الصدمة الكبرى فى حياة الشعب الأمريكى  
ألا وهى حرب فيتنام، كان الحديث عنها لا ينقطع فى الجامعة، فقد شغلت  
أذهان الطلبة وغيرت الكثير من مفاهيمهم القديمة. كانت الصدمة الأولى هى  
إغتيال كيندى عام ١٩٦٣ ولم يستطع الأمريكيون وقتها استيعاب معنى تلك  
الحادثة حتى جاءتهم الصدمة الثانية بعد خمس سنوات متمثلة فى هزيمتهم  
فى حرب فيتنام فأثارت لديهم المخاوف التى طالما حاولوا قمعها بداخلهم..  
الخوف من الشيخوخة ومن الموت.

وفى ما بعد أصبح المحاربون القدماء فى فيتنام نماذج غنية استعانت بها إيكير  
فى ندواتها حتى أصبحوا يمثلون واحداً بين كل اثنين من المشاركين فى تلك  
الندوات.

وفى ظل الأحداث المتلاحقة فى الولايات المتحدة عقب بدء حرب فيتنام،  
كانت إيكير تمارس عملها الذى لفت إليها الأنظار. فى إحدى ندواتها التقت  
بمريض فى الخمسين من عمره مصاب بورم خبيث سرى وتغلغل فى جسده  
وعظامه وأحال لونه إلى الاصفرار وتسبب فى سقوط شعر رأسه، وظل الرجل  
لأسابيع طويلة يعانى ويشكو باستمرار حتى نفذ صبر المرضات.

أبدى الرجل غضبه عندما صارحته إيكير لأول مرة بأنها تعد بحثاً صغيراً  
عن المرضى ولكنه وافق على الحديث معها فسألته عن عمره ومرضه وعائلته،  
قال الرجل:

لقد دخلت المستشفى منذ أبريل الماضى لأول مرة وأخبرونى أننى مصاب  
بالسرطان.

- وماذا كان رد فعلك؟

- لقد صدمت بكل تأكيد.. لقد جئت فقط لعمل كشف باطنى لأن  
أمعائى غير مستقرة وتتأهبنى حالات متتالية من الإمساك والإسهال.. ولكننى  
لم أفكر أبداً فى هذا المرض اللعين.

كان الطبيب الذى فحص ذلك الرجل صريحاً بصورة فجأة فقال له: «إنك تواجه الموت.. كان والدى يعانى من نفس الحالة وتوفى بسببها!»  
تعجبت إيكير من تصرف ذلك الطبيب.. فقد جرت العادة على معاناة الأطباء لإخفائهم الحقيقة عن المرضى.

وأخذ مريض السرطان يحكى قصة حياته.. إنه مهندس كيميائى متزوج من مدرسة لغة إنجليزية، ناجحة ومحبوبة بين تلميذاتها ولديه ولدان أحدهما فى العشرين من عمره والآخر فى الثانية والعشرين أما ابنته الوحيدة فقد توفيت فى إيران وتركت طفلين صغيرين لزوجها الذى يعمل فى مصانع البترول.

استمعت إيكير إليه وهى تبحث عن حلقة مفقودة فى روايته.. إن شيئاً ما يدفع هذا الرجل للتشبث بالحياة رغم أن حالته الصحية تؤكد أنه يموت تدريجياً، شىء ما ينقذه ولا بد من عمله قبل أن يغادر عالم الأحياء.. ربما يشعر بأنه حُرْم من تلقى العزاء فى ابنته التى ماتت ودفنت بعيداً عنه.. ولكن ذلك يحدث لكثيرين!.. كما أنه غير راغب فى الحياة ذاتها. هناك سر لا بد أن تتوصل الطبيبة لاكتشافه.

إن الصراعات النفسية التى تتضارب داخلنا أثناء الحياة سرعان ما تظهر على السطح مع اقتراب نذير الموت رغم المحاولات المستميتة لإخفائها.. وهذا الرجل الذى يبدو عاجزاً أو غائباً عما يدور حوله يعانى من صراع رهيب.. وما كاد يتحدث عن زوجته حتى تأكدت إليزابيث من أنه يعانى من عقدة نقص كبيرة فى مواجهتها.. تلك المرأة المتسلطة التى تستطيع تدمير كل شىء حولها، كلما مرت بهما سنوات العمر شعر بأنه ضعيف وتافه بجانبها.. كانت دائماً تتهمه بأنه يتسنى لفئة الخاسرين فهو لا ينجح فى إنجاز أى عمل، وزاد الأمر سوءاً أن أصبح ولداه مثله.. مجرد نكرة.. حتى أن أحدهم فشل وباللعار! فى الالتحاق بالجيش.

قال الرجل فى مرارة :

«الآن أموت فى الثانية والخمسين من عمرى ومازلت نكرة.. إننى متأكد من أن موتى سيكون الدليل الأخير على ضعفى وتفاهتى أمام زوجتى».

لم تدم المحادثة بين إيكر والمريض أكثر من عشرين دقيقة، ولكنها كانت المرة الأولى وربما الأخيرة التى يتحدث فيها عن نفسه بهذا الشكل، وعندما ورد ذكر الموت على لسانه فاجأته إيكر بسؤالها: «ماذا يعنى الموت بالنسبة لك؟» وفكر الرجل للحظات ثم أجاب إنه لا يهتم بالموت، فهو مؤمن قضى حياته كلها مواظباً على إقامة الشعائر فى الكنيسة.. ولكن ذلك على ما يبدو لم يكن كافياً ليمنحه الهدوء والإستسلام لإرادة الله.

فى اليوم التالى، ذهبت إليزابيث للقاء الزوجة المتسلطة.. امرأة شقراء جميلة تتمتع بالحياة، ولكنها ما كادت تستقبل الطبيبة حتى بادرتها بقولها: إنها لن تستطيع للأسف الحديث معها أكثر من نصف ساعة حول مشاكل زوجها النفسية، ثم أضافت أن دافيد المسكين ليس لديه سوى مشكلة واحدة ولكنها لا تستطيع له شيئاً.

وقاطعتها إيكر قائلة: إننى لا أوافقك فى الرأى.. إنك تستطيعين الكثير. ردت الزوجة بإتسامة باردة:

- اسمعى.. لا وقت للمزاح.. إن أمام زوجى بضعة أيام أو بضعة ساعات وأنا لا أستطيع شيئاً من أجله.

- فلتسمحى لى.. إنك مخطئة، فزوجك يشعر فى داخله بأنه خاسر ومحبط وأنتك..

وهنا صاحت الزوجة:

- مُحبط؟ ماذا تريدن منى بالضبط؟.. إنه زوجى وأعرفه أكثر منك.. ماذا تقولين؟.. طبيعة نفسية وتنقدين الأشخاص الذين يواجهون الموت!..

حاولت إيكبر أن تعترض قائلة عندما أقول محبط فإننى أعنى... ولكن الأخرى صاحت فى وجهها:

أبدأ.. لم يكن محبطاً فى يوم من الأيام.. لقد كان زوجى طوال حياته مثلاً للشرف والتقاء.. إنه أشرف رجل قابلته فى حياتى.. لقد قضى عمره فى نفسه من أجل الكنيسة وكان يضحى بجميع أجازاته من أجل مساعدة الناس.. والآن تقولين لى إنه..

قاطعتها إيكبر بحدة وهى تقول:

- كفى.. هل حدث أن قلت لزوجك هذا الكلام ولو مرة واحدة؟ ولم تستوعب الزوجة فى البداية وجهة نظر إيكبر فأعادت عليها السؤال وحيثذ كان ردها:

- ولكنه يا مدام يعلم جيداً أن..

- بل اذهبى إليه بسرعة وأخبريه.. أنه بين الحياة والموت.. أتتركيه يرحل هكذا دون أن تقولى له شيئاً.. إنه يتنظر ويتألم.

فى الصباح التالى جاءت الزوجة إلى المستشفى.. كانت إيكبر موجودة فقالت للمحاضر: «إن زوجتك تريد أن تقول لك شيئاً».

وتلعمت المدرسة الماهرة وهى تقول: «لقد كنت أقول للدكتورة روس إنك.. إنك كنت دائماً..» ولم تسعفها بلاحتها فى الحديث فانخرطت فى البكاء، وألقت بنفسها بين ذراعيه فأثرت إيزابيث أن تتركهما.

فى المساء ولأول مرة منذ أسابيع بدا الرجل هادئاً مسترخياً وكف عن الشكوى.. لقد بلغ المرحلة الخامسة. وفى الصباح التالى مات الرجل.

التقت إيكبر فى ندواتها بالعديد من النماذج التى تمثل مراحل مختلفة من الاحتضار ولكن المرحلة الثالثة وهى المساومة تعد أكثر السيناريوهات طولاً.. «دكتور.. عدنى بأن أعيش حتى الكريسماس» أو «حتى يعود ابنى من السفر»..

إنها مساومة وهمية يطلب فيها المحتضرون من الشمس أن تتوقف عن دوراتها  
ومن الزمن أن يوقف عجلته !

ذات يوم أكدت المريضة التي تحدثها إيكير من وراء الستار أنها تستطيع  
أن تصمد عاماً كاملاً حتى زواج ابنها! لم يكن الأمر مقنعاً بالنسبة لإليزابيث  
أو الأطباء.. فهي ترفض أى تكهن بلحظة انتهاء الأجل. إن الطب مهما  
تقدم لا يستطيع أبداً تحديد موعد الموت. ولا يجب أن يجنح بنا الأمل  
بعيداً.

فى المرحلة الثالثة نشهد تعايشاً غريباً بين الأمل فى الحياة والتيقن من الموت.  
فالمحتضرون يحتفظون فى هذه المرحلة بطاقة وحيوية ضخمة تساعدهم على  
المساومة، لقد أكدت المريضة رغم صحتها المتدهورة أنها ستعيش حتى تشهد  
زفاف ابنها، وكان رأى الجميع أنها لن تستطيع الصمود لفترة طويلة.. ولكن  
حدثت المفاجأة.. وجاء يوم الزفاف ورغم نحافتها الشديدة وحالة الاعياء التى  
تعانى منها وجدت لديها القوة لترتدى أبهى ملابسها وتزين وتذهب لزفاف  
ابنها وهى فى أوج سعادتها.

وبعد أسبوع من عودتها للمستشفى اندفعت الأم داخل قاعة الندوة وقالت  
بحدة أمام الجميع: «دكتورة.. لدى ابن آخر وأريد أن أزوجه أيضاً».. ولكن  
هذه المرة لم تستطع الأم الصمود طويلاً رغم أنها لم تفقد الأمل والعزيمة حتى  
النهاية.

فى المرحلة الرابعة يطغى الإحساس باليأس والكآبة على المحتضر.. وتكون  
المشكلة فى أغلب الأحيان هى تثبيت من حوله بالمرحلة الأولى (مرحلة  
الرفض والاستكار).. فهذا السلوك يمنع المحتضر أن يعبر بسلام المرحلة  
الرابعة، إنهم يحاولون بلا جدوى بعث الأمل داخله مع أن الأفضل له هو  
تقبُّل مصيره المحتوم، والاستعداد لترك هذا العالم! إن العناد والتمسك بمحاولات  
العلاج غير المجدية، يُعد نوعاً من التعذيب فنحن بذلك نحرم المحتضر من

أن يتحرك ويتخطى مرحلة اليأس.. فيرفض فى معظم الأحيان رؤية أى شخص أو ربما يرتاح لشخص واحد فقط قد يكون قريباً أو صديقاً أو المرصّة.

إن الحديث النظرى عن مراحل الاقتراب من الموت ليس معناه أن هذه المراحل تظهر واضحة محددة المعالم فى الواقع.. فهى تتشابك وقد تتكرر إحداها مرتين أو ثلاثة، فهناك درجات من التردد والرفض فى مرحلة الإنكار، وتفاوت فى حدة الغضب، وتوسلات مختلفة أثناء المساومة، لكن التسلسل العام لهذه المراحل يظل ثابتاً وعندما لا يوجد ما يعوق المرور بالمرحل الأربعة الأولى، فإن المحتضر ينفذ تلقائياً إلى المرحلة الخامسة.. وقد يستغرق الأمر عدة سنوات أو عدة ساعات حتى تأتى المرحلة الخامسة أو المحطة الأخيرة.

كان معظم الاطباء يرفضون أسلوب إيكر فى مواجهة المحتضر بحالته ويؤمنون بضرورة تركه.. يموت فى سلام، كانت لديهم نفس مخاوف البروفيسور رونالد سيجل من أن يفسح أسلوبها مجالاً لانتشار «اللامعقول» بصورة مخيفة فى العالم، ورغم اختلاف الآراء لم يستطع الأطباء معارضة إيكر بشدة لأنها تهدف إلى مساعدة الناس على المرور بكافة المراحل حتى المحطة الأخيرة من خلال رعاية طيبة وإنسانية.. بعدما لاحظت أن المريض الجيد بالنسبة للمستشفى هو الذى يتماثل للشفاء وليس المحتضر الذى يواجه الموت.

ورغم سوء التفاهم المستمر بين إيكر وزملائها فإن ندوتها المتميزة كانت تجذب إليها الكثيرين.. فامتدت شهرتها إلى مراكز علاج السرطان ودور المسنين ومعاهد التمريض.

كان الجميع يتحدث عن امرأة غير تقليدية، طيبة نفسية تناقش الموت مع المحتضرين وتؤكد أنه لا ينبغى حرمان أى شخص من مواجهة نهايته، فالمعاناة تجربة يمكن التخفيف من حدتها ولكن إنتظار الموت يمكن أن يصبح تدريجياً نفسياً يحول المحتضرين إلى أساتذة فى فن الحياة.

خارج مستشفى بيلينجز كانت إليزابيث تتبع أسلوبها الخاص فى عدة منشآت أخرى منها كلية الدراسات الدينية (حيث أدخلت دورة دراسية عن الطب النفسى) ومعاهد المكفوفين، هناك اكتشفت أن فاقدى البصر يعيشون داخل مشاعرهم الخاصة أكثر من المبصرين.. حاول أن تجلس فى مكانك لمدة شهر أو حتى يوم واحد مغمض العينين وستعرف كيف يفكر المكفوفون

ذاعت شهرة إليزابيث فى المجتمع الأمريكى فى نهاية خريف ١٩٦٩ من خلال ثلاثة أحداث:

الأول هو كتابة إليزابيث لأولى مقالاتها فى المجلة الطبية التى تصدرها جامعة شيكاغو. وجاءت الفرصة الثانية عندما قرأ الناشر الأمريكى الشهير «ماكميلان» مقالها بالصدفة وطلب إليها أن تؤلف كتاباً.. وحاولت أن تعتذر لأن حياتها مشحونة ولا وقت لديها للتأليف.. فالمرضى بدؤوا يطلبونها فى كل مكان وكانت تذهب إليهم كلما استطاعت لتحدث معهم وتسرى عنهم، كانت تفعل هذا مجاناً، فلم تكن تتصور أن تقول لشخص ما مثلاً: «لقد ساعدت زوجتك على الموت فى سلام.. والحساب مائة دولار!». ولكن فى المقابل بدأت إليزابيث بعد ذلك تتقاضى أجراً عن الندوات التى تعقدتها فطردتها الجامعة، وبدأ الناشر يلح عليها فوافقت على تأليف كتاب عنوانه «حول الموت والاحتضار» وفرغت منه خلال ثلاثة أشهر كانت خلالها تعمل فيه من منتصف الليل حتى الثالثة صباحاً.

وكانت إليزابيث على موعد مع الشهرة للمرة الثالثة عندما اهتمت مجلة «لايف» الأمريكية بالتعرف على أسلوبها الحديث فى التدريس فأرسلت فريقاً صحفياً لإقناعها بضرورة تعريف الناس بما يحدث وراء الستار فى ندواتها.. دعت إليزابيث صحفياً ومصوراً لحضور ندوتها الأولى لشهر نوفمبر.. كانت تستعد فى ذلك اليوم لمناقشة رجل عجوز يعيش منذ فترة طويلة فى حالة «سلام مع نفسه» أضافت إليه مزيداً من الحكمة، ولكن فجأة مات العجوز

ليلة إلقاء المحاضرة واحتارت إليزابيث ماذا تفعل.. ثلاثة أطباء بالمستشفى متعاطفين معها فساعدوها على تفقد مرضاهم سراً وأخيراً استقر الرأي على «إيفا».. فتاة سمراء جذابة فى الثانية والعشرين من عمرها مصابة بسرطان الدم، يا للمصادفة! إن حالة إيفا مشابهة تماماً لحالة ليندا التى قدمتها إيكر منذ خمس سنوات.

جاء مندوباً مجلة «لايف» ليشهدا الندوة وكان واضحاً أن إليزابيث تعرض نفسها للمخاطر، فخلال الحوار القصير الذى دار بينها وبين الفتاة قبل الندوة كانت فى متهى الهدوء تتقبل مصيرها بشيء من الدعابة والسخرية، وأبدت سعادتها لنشر صورها فى مجلة «لايف».

ولكن أثناء الندوة، حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد رفضت الفتاة الحديث عن الموت وقالت: «تعالوا نتحدث عن الحياة، إننى أعتقد فى شفاى»، ثم بدأت تحكى أحلاماً مجنونة عن معجزات الشفاء.

إلى أى مرحلة تنتمى هذه الفتاة؟ الأولى أم الثالثة أم الخامسة؟.. إن ذلك لا يهم الآن. خلف الستار، تأثر الطلبة بشدة بكلام الفتاة وذرف الصحفى «لندن وينرايت» دموعاً ساخنة، بينما نجح المصور «ليونارد ماكومب» فى التقاط صور رائعة عبر الستار.

وظهر المقال فى مجلة لايف فى ٢١ نوفمبر ١٩٦٩ ويعدها أصبحت إليزابيث كوبر-روس والفتاة إيفا من نجوم المجتمع الأمريكى.

ولكن رد الفعل لدى المسئولين فى مستشفى بيلنجز كان مختلفاً.. فقد استشاطوا غضباً وهدد قسم العلاقات العامة بالاستقالة الجماعية، لقد بذل العاملون فى هذا القسم جهداً مضنياً لإظهار المستشفى بصورة مشرقة تنم عن الصحة والعافية.. واليوم تجىء هذه المرأة الشيطانية لتحطم كل هذا الجهد وتجعل إحدى المحاضرات فى المستشفى سبب شهرته فى العالم كله والأدهى

أنها شابة صغيرة. «هل تتحول الدعاية للمستشفى إلى شعار يقول: هاتوا أطفالكم ليموتوا فى مستشفى بيلنجزا»

بعد هذه الضجة شدد الرؤساء أوامرهم للأطباء والمرضات والطلبة بضرورة الالتزام بتعليمات المستشفى وتم توزيع نشرة لمنع إيزابيث من التعامل مع معظم أقسام المستشفى.

فى ندوة الأسبوع التالى لم يحضر سوى عدد قليل من الطلبة جاءوا لوداع إيكر التى بدت مستاءة ومضطربة.. فقد حذروهم من حضور الندوة إذا أرادوا أن يحصلوا على درجات التخرج. واضطر الطلبة أن يرضخوا للأوامر.. فشهاداتهم ومستقبلهم واحترام رؤسائهم وقلة تجاربهم أصبحت جميعاً فى كفة واحدة أمام تعلقهم بالندوة.. فكيف لهم أن يتصرفوا؟ إنهم معذورون ولا شك.

كانت تلك فكرة خبيثة لمحاربة إيزابيث روس، فبينما استمرت ندوتها بشكل رسمى فى البرنامج الدراسى لجامعة شيكاغو إلا أن جميع الطلبة قاطعوها وتهربوا من حضورها.

ومن ناحية أخرى، انهالت الخطابات على مجلة «لايف» بعد نشر مقال إيزابيث وإيفا.. خطابات من كل مكان ومن فئات مختلفة.. ممرضات وأطباء.. قساوسة ومرضى منهم عدد كبير تماثل للشفاء.. سيل من الخطابات، تحمل لإيكر آلاف الأسئلة التى أكدت لها صدق حلسها.

وبعد عدة أسابيع من التخطيط والإحباط استعادت إيكر توازنها وعادت إلى ندواتها متنقلة بين العديد من المؤسسات بعد أن تركت الجامعة.

فى أول يناير ١٩٧٠ ماتت إيفا. وأحدث خبر وفاتها تحولاً كبيراً فى أعماق إيزابيث.. لقد شعرت بالنضوج ولم تعد تخشى رؤساءها وهى التى كانت حريصة دائماً على ألا تصدمهم، وتجاهلت فى سبيل ذلك الكثير من الشواهد الغريبة التى رأتها وسمعتها وأحست بها عند اختلاطها بالمحضرين.. أشياء تافهة

وأخرى عظيمة لم تلتفت إليها لشدة حرصها، وربما لخوفها من المجهول أو قلة نضجها.

عندما يموت هؤلاء المحضرون تخفى معهم الروى التى شاهدوها أو كما يقول القدماء «كلمة السر» التى تنتقل من جيل لآخر.. وتبقى فقط الطقوس الدينية المتبعة فى دفن الموتى.

وتؤكد إليزابيث أن المرحلة الخامسة لا تزال غير مفهومة رغم جمالها.. فهى تتدفق فى سلاسة مثل شلالات نياجرا.. وتحدث تغييراً فى معنى الحياة لدى من يمر بها، ولكن العلم يقف دائماً حائلاً أمام الظواهر الغريبة غير معترف بها حتى ينكشف غموضها، أما الدين فيلعب دوراً اجتماعياً ونفسياً فى تهدئة المحضرين.. هكذا كانت إليزابيث تشعر عندما تقترب من أحدهم يصحبها أحد الاخصائين النفسين بالمستشفى ليحاولوا معاً إخراج ما فى جعبة المريض.. كان الأخير يعتقد دائماً أن المرشد النفسى يحاول علاجه نفسياً، بينما جاءت إليزابيث لتلعب دور القس الذى يأخذ بيده إلى حافة بحيرة الموت.. كان الموقف مخيفاً يحتاج لجرأة وحنان امرأة مثلها.

عندما يبلغ المحضر حافة الموت يذكر شواهد غريبة.. مثلما فعلت مدام شوارتز التى دعته إليزابيث ذات مرة فى إحدى ندواتها، إنها سيدة فى الأربعين ينهش السرطان جسدها ببطء شديد، وقد دخلت المستشفى ثلاث عشرة مرة من قبل، وفى المرة الرابعة عشرة جاءت لتحكى قصتها من وراء الستار فى حضور خمسين طالباً.

إنها خادمة من ولاية إنديانا، يعانى زوجها من حالة انفصام فى الشخصية «شيزوفرينيا» حادة.. وعندما تتابه التوبة يحاول دائماً قتل أصغر أطفالهم الأربعة (الوحيد الذى ما زال يعيش معهم فى المنزل)، وفى كل مرة تتدخل الأم قبل أن يقتل الأب طفله..

بعد دخولها المستشفى كاد القلق يمزقها ولم تعد تعرف للنوم طعماً.. ماذا يحدث لو انتابت الأب النوبة في غيابها.. إن إحدى شيققاتها ترعى الطفل في غيابها، ولكن صورة الأب وهو يذبح الطفل كانت تلازمها باستمرار. وتعددت المرات التي احتجزت فيها المرأة في المستشفى وخاصة في شيكاغو حيث توجد وسائل أفضل لعلاج مرض السرطان، وذات يوم في طريق عودتها إلى «إنديانا» شعرت بتوعك شديد لدرجة جعلتها تدخل أقرب مستشفى.. وهناك مرت بتجربة فريدة.

كانت قد تعبت من المقاومة والتمسك بالحياة والتفكير في طفلها المهدد وفجأة انهارت مقاومتها وقررت أن تنسى كل شيء لترحل في سلام.. عندئذ شعرت بصفاء وسكون يشملها، وفتحت عينيها لترى الممرضة تدخل حجرتها وتقيس لها النبض ثم تطلب فريق الإنعاش.

وتحكى مدام شوارز كيف مرت بهذه التجربة.. لقد شعرت بعد حالة الهدوء والاسترخاء التي شملتها بأن شيئاً ما يجذبها إلى أعلى.. وجدت نفسها بعد قليل تسبح في الهواء على مسافة من السرير وهي ترقب جسدها الشاحب الممتد تحتها، فانتابها شعور بالمرح وهي ترى نفسها قرية جداً وبعيدة جداً في آن واحد!

وسألته إليزابيث إن كانت قد شعرت بالفعل أنها في عداد الأموات.. وردت مدام شوارتز بالإيجاب، فقد كانت على ارتفاع ثلاثة أمتار، وفريق الإنعاش من حولها يقوم بحقتها ومحاولة إسعافها، وشاهدت جميع التفاصيل بدقة حتى لون عيون الأطباء.. بل إنها استطاعت قراءة أفكارهم، فأحدى الممرضات كانت تلندن في سرها بقطعة موسيقية.

لأول مرة في حياتها تشعر مدام شوارتز بمثل هذا التحسن، وقد حاولت أن تنقل إحساسها لفريق الإنعاش حتى يهدأ بالأفاقتريت من بعضهم لتلمسهم، ولكنها اكتشفت أنها تراهم وهم لا يدركون وجودها.. فهي بالنسبة لهم

مجرد جثة هامدة يحاولون إنقاذها. وبعد عدة محاولات فضلت على حد تعبيرها «أن تفقد الوعي». فاستيقظت فى سريرها وداخل جسدها بعد أن توقفت قلبها ٤٥ دقيقة كاملة! وأيقن الجميع أنها ماتت خاصة وأن رسم المخ الكهربائى أكد أيضاً موتها من الناحية الطبية.

كانت تلك هى المرة الأولى التى تستمع فيها إليزابيث لمثل هذه الرواية، وبعد أن عادت مدام شوارتز إلى غرفتها بدأت مناقشة حامية فى الندوة.. احتج الطلبة مرددين: «من تلك المجنونة؟ ولماذا أتت بها إليزابيث؟.. ولماذا لم تتدخل لوقف هذيانها؟.. إن ما تقوله مجرد هلوسة وخيالات مريضة» وأصر الطلبة الذين أظهروا غضباً شديداً على أن تضع إليزابيث تفسيراً مقبولاً لما سمعوه، وتوقعوا أن توافق على رأيهم فى أن الرواية لا تزيد عن مجرد هلوسة. قالت إليزابيث للطلبة: «إننى لا أستطيع تفسير هذه الظاهرة ولكن كيف تريدونى أن أمنع هذه المسكينة من إنهاء روايتها.. إن المنطق العلمى يجب ألا يتجاهل أى ظاهرة حتى لو كانت غير مفهومة».

وساد المرح أنحاء القاعة، فقد وافق بعض الطلبة على رأى إليزابيث بينما اعترض البعض الآخر.. فقالت لهم: «إن الاستماع لهذه الرواية ليس معناه عدم نقدها، ولكن إذا افترضنا وجود شيء من الحقيقة فيها فإن هذا يعنى أننا نستطيع أن نجد حالات مشابهة ومن ثم يمكن إخضاعها للدراسة والبحث..»

كان هناك شيء ما فى قصة مدام شوارتز تفهمه إليزابيث ولكن الطلبة لم يستطيعوا إدراكه.. لقد رأيت ذلك واضحاً عندما شاهدت شرائط الفيديو الخاصة بها فى بوسطن عام ١٩٨٤ ، والتى كانت تسجل فيها لقاءاتها مع المحضرين.

هناك حالة لا أستطيع أبداً نسيانها.. كانت لامرأة مصابة بورم خبيث فى الغدة الدرقية، جعل رقبته متفححة بصورة مؤلمة، وكانت إيكر تحدثها فى حنان وهدهود بينما ترقد المريضة على السرير وإلى جانبها حفيدتها الرضيع.

ورغم الاهتمام الهائل الذى تمنحه إليزابيث للمحتضرين فإنها تتصرف بسلبية متناهية إزاء الجثث.. لقد استمرت لساعات طويلة إلى جوار رجل محتضر، ولكن ما إن توفى حتى ظهر حاجز بينها وبين الجثة.. لقد أصبحت الجثة مجرد كوم من اللحم!..

ذهبت الروح وبقي الجسد، إن الحياة تشدها أكثر إلى عالم المحتضرين لتصبحهم فى محطتهم الأخيرة وهو عمل يبدو مخيفاً بالنسبة للمجتمع، ولكنه يمنح إليزابيث حيوية شديدة تنتقل بصورة غير مباشرة للمحتضر نفسه، فمساعدة المحتضرين تؤدى فى بعض الأحيان إلى حل مواقف نفسية معقدة تحيط بالعائلة كلها.. إن الأيام أو الساعات الأخيرة فى حياة الإنسان لو مرت فى سلام لكانت كفيلة بأن تغير حياة عائلة بأكملها.

التقت إليزابيث بعد ذلك خلال حياتها العملية بالعديد من النماذج المشابهة لدمام شوارتز، ولكنها لم تخبر أحداً.. كانت فقط تجمع المعلومات وتضع الاستنتاجات حول هذه الظاهرة مثلما فعلت من قبل عند لقاءها بالمحتضرين الذين وصلوا إلى المرحلة الخامسة.

واكتشفت إيكير أن بعض المحتضرين يتمتعون بحاسة تناقل الخواطر التى يستشفون من خلالها ما يدور فى خلد الآخرين عن بُعد وبغير الوسائل الحسية المعروفة، فيستطيعون مثلاً تخمين ما تفكر فيه، ويذكرون أشخاصاً لا يعرفهم أحد سواك، ويصفون أماكن لم يزوروها من قبل.

وقد ضرب الأطفال الرقم القياسى فى هذه الظاهرة.. فقررت إليزابيث بعدها أن تركز جهودها لرعاية الأطفال الذين يواجهون الموت وكذلك آبائهم.. فأصبحت رعاية آباء الأطفال المحتضرين هى أهم أعمالها.

فى عام ١٩٧٠ وبعد نشر مقال «لايف» بدأت الجامعات والمدارس والمستشفيات تدعو إيكير لإلقاء محاضراتها، وحققت كتابها شهرة واسعة بسبب مقال «لايف» الذى ضاعف ردود الفعل تجاه الكتاب آلاف المرات.

كانوا يطلبونها فى كل مكان فتذهب أو تسافر إليه. وأخذتها الشهرة فأهملت طفليها ولم تعد تراهما بانتظام، واتسعت خلافاتها مع زوجها.. فباع المنزل فى شيكاغو ورحل مع الطفلين وتركها وحيدة.

وفكرت إليزابيث ماذا تفعل؟ هل تستمر فى دراستها «لظاهرة شوارتز...»؟.. لا.. إنها ستترك هذا المجال لغيرها من العلماء ممن هم أصغر سناً، وذات يوم جاءتها بروفات كتاب لناشر من أطلنطا يحبب فيه جهودها فى مجال علم النفس، ويرجوها أن تكتب مقدمة لكتابه فوافقت.

كان الطريق أمام إيكير ممتدا.. خاضت خلاله تجارب عديدة وتألقت فى مجالها، فلتركتها الآن تستكمل اكتشافها للمجهول الذى كانت تحلم بسبر أغواره ودروبه منذ وقت طويل.

لقد فتحت هذه المرأة المجال أمام الكثيرين من علماء النفس.. فلتسمح لى عزيزى القارىء بإلقاء نظرة على جهود الرجال فى هذا المجال ثم نعود مرة أخرى إلى إيكير.